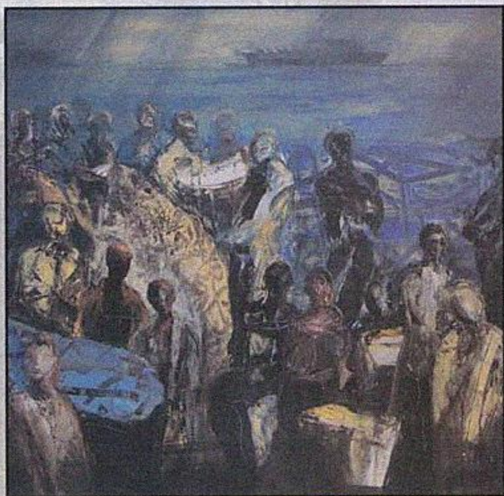
توماس مان

الموت في البندقية

رواية





توماس مان

الموت في البندقية

رواية

الترجمة عن الألمانية: عدنان حبّال

الموت في البندقية

* توماس مان
* الموت في البندقية
* ترجمة: عدنان حبال
* جميع الحقوق محفوظة ©Copyright
* الطبعة الأولى 2015
* الناشـــــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشراف الفني وتحرير النّص: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

حياة توماس مان وأعماله

ولد في 1875/6/6 في مدينة لوبيك شمالي ألمانيا من أب تاجر أصبح قنصلاً ثم عضواً في مجلس الرايخ الألماني، نائباً عن دولة المدينة لوبيك (كانت بعض المدن الألمانية ومازالت تعتبر دولة أو ولاية مستقلة داخل الاتحاد). ظهرت أولى كتابات توماس مان عام 1889 وكان مازال تلميذاً في المدرسة الإعدادية، ومنها بعض القصص القصيرة مثل «آيشا» و«لن تستطيعوا قتلي بالسم» و«الكهنة» التي ظهرت فيها معارضته لسلطة الكنيسة. وربما استوحاها آنذاك من مسرحية الشاعر شيللر الشهيرة «دون كارلوس» بالإضافة إلى أنه نظم بعض القصائد الغرامية وجهها إلى زميلته في دورة التدريب على الرقص في المدرسة. ما جلب له شهرة سلبية أضرت بسمعته باعتباره ابن عائلة أرستقراطية ثرية، حتى أنه توقف عن الكتابة وتركها لأخيه الأكبر هاينريش مان الرصين المحافظ.

وبعد وفاة الأب، الذي وصفه توماس أنه «المحبوب برقة يشوبها الخوف» استأنف محاولاته الكتابية وقد تحرر من «أثقال الإرث العائلي والتجاري الثقيل»، كما وصفه

فيما بعد، وأضاف أنه عاش بعد وفاة أبيه سنة حافلة «بالحوافز والنشاطات» ولم يكن يحفل كثيراً بتقاليد العائلة وسمعتها، ولم يحزن لبيع قصرها القديم والسكن في شقة عادية وظروف متواضعة. أما أمه فقد أخذت ابنتيها الصغيرتين وغادرت المدينة كلها إلى ميونيخ عام 1893 وتركت ابنيها الكبيرين هاينريش وتوماس اللذين أصرا على الانصراف للكتابة بدلاً من التجارة أو السياسة. وقضى توماس ذلك العام في مدرسة داخلية ثم لحق بأمه وإخوته إلى مدينة ميونيخ عاصمة الأدب والثقافة والفن. كان عليه أن يعود إلى لوبيك لنيل الشهادة الثانوية، لكنه قال عن نفسه، إنه كان في تلك الفترة «عنيداً وكسولاً ومملوءاً بالسخرية والانحلال، مما يرى حوله»، ولم يمكث في المدرسة سوى فترة قصيرة حصل بعدها على شهادة تخوله الالتحاق بالخدمة العسكرية عاماً واحداً، وظهر أمام الآخرين متمرداً ومنحرفاً عن الطريق القويم بعد موت أبيه. لكن هذه الصفات لم تمنع توماس من المشاركة الفعالة في النشاط الأدبي والفني المدرسي ومن كونه زميلاً محبوباً لدى التلاميذ والمعلمين نظراً لسرعة بديهيته وخفة ظله في التمثيل والإيماء الهزلي.

وتصادق مع ابن أحد التجار المفلسين وكان اسمه «أوتوغراوتوف» وجمعتهما النظرة الساخرة للمدرسة والتعليم ونظامه، فأصدرا معاً مجلة شهرية بعنوان «عاصفة الربيع» تضمنت إنتاجات الشباب في الفن والأدب والفلسفة. وكان توماس يكتب الافتتاحية ويملؤها بروح معارضة أساليب التعليم التقليدية والنظام

الاجتماعي البورجوازي واستعار اسماً صحفياً هو باول توماس، وكتب تحت هذا الاسم المستعار أيضاً مجموعة من القصائد والمسرحيات الشعرية استمد روحها وأسلوبها من الشاعر الشهير هاينريش هاينه، ولاسيما ما يتعلق بالنقد الساخر بين السطور الذي ظل ملازماً لأدب توماس مان طيلة حياته. ويتضح تأثره بهاينه في كتابه «صورة غوته» الذي يعده النقاد امتداداً لكتاب هاينه «تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا»، والمعروف عن هاينه أنه ابن عائلة يهودية تركها واعتنق المسيحية وكان معجباً بمارتين لوثر والمذهب البروتستانتي الإصلاحي للكنيسة. وهذا ما ترك أثره الواضح أيضاً على معظم أعمال توماس مان ولاسيما في روايته «القانون» وروايته الكبرى الرائعة الشهيرة «الجبل السحري» وكذلك في آخر رواياته التي صدرت عام 1953 وهي «المخدوعة».

ورغم ذلك، فلم يكتب توماس مان أية مقالة مطولة عن أستاذه هايرنيش هاينه، بل اكتفى بشهادات نقدية متفرقة كان آخرها «ملاحظة حول هاينه»، نشرها عام 1908 ووصفه فيها بأنه أعظم كتاب ألمانيا العباقرة قبل نيتشه. وقد ابتعد توماس مان بدوره عن التقليد والمصطلحات الأدبية، ورفض التقيد بها واستبدل بها التحليل النفساني لشخوصه وتطورات صراعاتها، ورصد خصوصياتها الرقيقة الشفافة وانفعالاتها العصبية. وربما يعود الفضل في ذلك إلى نشأته وفترة طفولته ومراهقته في بيئة كانت تكنّ لعائلته ولأبيه خصوصاً الكثير من الاحترام والإعجاب، ما ولّد لديه الثقة بالنفس والاعتزاز وعدم قبول أية أفكار

أو أساليب من الآخرين قبله وحوله إلا بعد دراسة وتمحيص شديدين، أخذهما عن أبويه وأخذ معهما الذوق الثقافي الرفيع. وما اكتسبه من دروس في الفن والموسيقى والأدب تلقنها مباشرة على يد أمه في البيت وظلت أسسها ملتصقة به على الدوام.

وخلاصة القول إن نقاء نفس توماس مان من شوائب التعليم القسري وحفظ المواد والدروس عن ظهر قلب، وانفتاحه المبكر على العالم حوله بثقة وثبات وفضول إلى جانب بيئته البورجوازية الراقية التي تواضعت بعد وفاة أبيه، كل ذلك ترك آثاره على حياته وأعماله. بالإضافة إلى ما اتصف به شخصياً من اجتهاد وطموح واندفاع لنصرة الحق والوقوف إلى جانب المظلومين والمقهورين، ولو أنه اضطر مراراً إلى مهاجمة وانتقاد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي بالأصل إليها في مدينة لوبيك المستقلة.

وصل توماس مان في خريف عام 1893 إلى دار عائلته في ميونيخ وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، أي أنه لم يبلغ بعد سن الرشد وهي الحادية والعشرين، وقال عن نفسه وقتها: «وبما أنني لم أكن قادراً على عصيان والدتي ولية أمري، فقد بحثت مؤقتاً عن عمل أعيش منه، وبما أنني كنت أكره الخنوع وتنفيذ الأوامر الفورية، فقد اشتغلت كاتباً في إحدى شركات التأمين على الحريق وعشت مرحلة كانت فريدة من نوعها. كنت أنسخ القوائم بأسماء الناس المؤمّنين ضد الحريق وبيوتهم وأشيائهم وأوصافها بالتفصيل ولا شيء أكثر للحديث عن هذه المرحلة». ولعل

من الطريف القول إن توماس مان كان يخفي في دروج طاولة مكتب التأمين على الحريق أوائل قصصه الشهيرة مثل «السقوط»، وقد نشرتها في تشرين الأول عام 1894 مجلة «المجتمع» الأدبية السياسية المعروفة جداً آنذاك، ووضعت لأول مرة اسمه الحقيقي توماس مان تحت عنوانها بعد أن كانت قد نشرت له أيضاً قصيدة بعنوان «وداعاً مرتين» تحت اسمه المستعار من أيام المدرسة في لوبيك وهو «باول توماس».

وأثارت قصة «السقوط» ضجة كبرى، وقيل إنه بدأ كتابتها في المدرسة وأكملها على طاولة مكتب شركة التأمين. وأبدى الناقد الشهير آنذاك «ريتشارد ديميلز» إعجاباً شديداً بالقصة، وبعث برسالة مطولة إلى المجلة المذكورة يعترف فيها بموهبة توماس مان الروائية الفذة. والطريف أن «ديميلز» كان يعمل في المهنة نفسها التي انضم إليها توماس مان، وهي التأمينات ضد الحريق بل كان يشغل منصب سكرتير اتحاد شركات التأمين على الحريق الألمانية. وقد حقق في تلك الفترة أيضاً شهرته كأديب وشاعر من خلال ديوانه المسمى «ولكن الحب». ويعود إليه بعض الفضل في تشجيع توماس مان على الاستمرار في كتابة القصة والرواية، بل وترك شغله الروتيني من أجل التفرغ للكتابة بموافقة أمه ومباركتها.

ورغم ذلك فلم يرض توماس بإعادة نشر قصة «السقوط» في أي من مجموعاته القصصية اللاحقة، ووصفها بأنها «لم تكن قصة ناضجة كما يجب، رغم

أنها ربما اتصفت بالسلاسة الموسيقية»، وقال إنها أحد آثار الرومانسية الفرنسية. لكن كتّاب القصة في ميونيخ اقتبسوا موضوع «السقوط» وعالجوه في روايات عديدة، وأشاروا إلى توماس مان كمصدر لأفكارهم وشخوصهم الروائية الدرامية. وتحدثوا عن مرحلة الانتقال من تقنية السرد الموضوعي إلى التحليل النفساني الأعمق للذات الإنسانية. وقد أثارت هذه القصة أيضاً ضجة اجتماعية تمثلت في الدعوة إلى تحقيق العدالة بين الرجل والمرأة، وطرحت السؤال الأساسي وهو لماذا تسقط المرأة إذا سلمت نفسها للرجل ولا يسقط الرجل إذا استولى على المرأة بوسيلة ما؟ وعاد السؤال نفسه عام 1953 بعد صدور رواية «المخدوعة»، وأضيف إليه سؤال آخر هو: «لماذا يحق للرجل أن يختار المرأة التي ترضي رغباته وشهوته، ولا تملك المرأة مثل هذا الحق ولاسيما إذا تقدمت في السن...؟».

عمل توماس مان في ميونيخ كاتباً وصحافياً في مجلة حملت اسم «القرن العشرون»، وكانت ذات نزعة قومية ألمانية ومعادية للسامية، لكن ما نشره فيها لم يحمل أي دليل على تبنيه لهذا الاتجاه العنصري. وأكد بعد ذلك بسنوات أنه كان يحس بعدم الارتياح للعمل في هذه الصحيفة لولا أن حافظ على لونه الخاص وفكره المستقل وموسيقاه المفضلة، وكان يعني بذلك كتاباته الأدبية في الشعر والقصة والنقد قبل أن تجتذبه السياسة التي قال إنها إحساس بالانتماء إلى الوطن لا يمكن لأي كاتب أن يتخلص

منه أو يتخلى عنه في كتاباته مهما كان نوعها. وكان على كل حال سعيداً بعمله الصحفي بعيداً عن قوائم المشتركين في التأمين ضد الحريق لمدة عامين كاملين هما 1895 و1896، تخللتهما فترات قصيرة من الإقامة في روما مع أخيه الأكبر هاينريش. وظهرت في آب عام 1896 قصة توماس مان الشهيرة «الإرادة» (وعنوانها الأصلي «إرادة السعادة»)، وقد ترجمت إلى العربية مع قصص أخرى في مجموعة بعنوان «الطريق إلى المقبرة» عام 2002). وبعد فترة وجيزة صدرت له رواية أخرى هي «السيد فريدمان الصغير» وحصل توماس عن قصة «الإرادة» على ثلاثين ماركاً ذهبياً بينما قبض لقاء «السيد فريدمان الصغير» مبلغ مئة وثمانين ماركاً ذهبياً. وهكذا ترك الصحافة وتفرغ لكتابة الدراما الروائية. وكان أخوه الكبير هاينريش يسكن في روما فاستدعاه إليه، ولبى توماس الدعوة وكتب عن ذلك يقول: «بدأت الرحلة في تشرين الثاني عام 1896 وقادتني إلى البندقية وبوساطة سفينة منها إلى ألكونا ومن ثم إلى روما وإلى نابولي. وانقلبت الرحلة إلى فترة إقامة استأجر فيها الأخوان شقة في روما ذات أرضية حجرية وكراسٍ من القش تملكها سيدة إيطالية لطيفة، وكنا نتناول الطعام كمشتركين في مطعم يدعى غينشانو. ونلعب مساء الدومينو في مقهى شعبي ونشرب البونش (شاي مع الكونياك والسكر). وقال توماس عن إقامته في روما مع أخيه: «كنا لا نفعل شيئاً سوى الكتابة والانتظار...»».

وبعد رسالة وصلته من الناشر ساموييل فيشر تطالبه

برواية جديدة طويلة. بدأ توماس كتابة روايته الشهيرة «بودن بروك» أو «سقوط عائلة» في مجلدين، وكانت مايشبه السيرة الذاتية عن نشأته في لوبيك ونقده الساخر للطبقة البورجوازية التجارية التي قال عنها إنها ذكية في إبرام الصفقات وغبية في فهم جوهر الحياة وهدفها، وتضمنت الدعوة للتجديد على يد الشباب المتحرر من التقاليد البالية.

كان على توماس أن يعود إلى ميونيخ للالتحاق بالخدمة العسكرية، لكن أمه استطاعت تخليصه من هذا العبء الثقيل آنذاك. وعمل محرراً في إحدى دور النشر البافارية براتب قدره مئة مارك شهرياً، واستطاع في هذه الفترة بين عامي 1898 و 1899 أن يقيم مع عدد كبير من شعراء بافاريا وأدبائها علاقات صداقة وطيدة، ويتبادل معهم الآراء حول الإنتاجات القصصية والشعرية والفلسفية المعاصرة (غوته وشيللر ونيتشه على سبيل المثال لا الحصر)، لكن اهتمام توماس مان انصب على عمله في كتابة روايته «بودن بروك» أو «سقوط عائلة» بهدوء ومتعة وتركيز على استعادة ذكرياته وشخوصها وأحداثها. وبدأها بطرح مبادئ الإصلاح الديني اللوثري وتداخلها مع المشاعر الوطنية والإنسانية، ومما جاء في مقدمة الرواية قوله: «إن الألمان اليوم أكثر شعوب أوروبا ثقافة شبابية وصحية وهم يحملون في أعماقهم حب الوطن والعقيدة وجوهر العائلة». وفي الوقت نفسه كان نيتشه يصف الدين بأنه مخدّر للشعوب وأنه مرض يسمم الحضارة

الألمانية القومية ويضعفها. لكن علاقة توماس مان كانت وثيقة ومتعددة الجوانب بالفيلسوف شوبنهاور، وبالتالي بالميتافيزيقية وبالموت باعتباره وسيلة مبدئية لاستمرار الحياة والوجود. وقد ظهر هذا التأثر أيضاً في رواية «المخدوعة» ولاسيما في مقولة بطلتها روزالي عبر كلماتها الأخيرة لابنتها:

«لا تنعتي الطبيعة بالخداع والقسوة. سأذهب الآن رغماً عني بعيداً عنكم وعن الحياة وربيعها. ولكن كيف سيكون الربيع بلا الموت؟ إن الموت سبب عظيم للحياة».

أما رواية «بودن بروك» أو «سقوط عائلة» فقد قرأها قبل النشر كتاب ونقاد كثيرون على فترة عام كامل ولم يدخل أحد منهم عليها أية ملاحظة أو طلب تعديل، وصدرت عن دار فيشر العريقة في آب 1901 إلى المكتبات، وحصل توماس مباشرة على شهرة أدبية واسعة. وتناقلت وسائل الإعلام الحديث بإعجاب عن الشاب المبدع والروائي الفذ، الذي استطاع في روايته الرائعة تحرير مشاعره العميقة ومعاناة نشأته وحياة أسرته وطبقته بروح النقد الساخر المتفائل الذي امتلأ بحب الوطن والإنسان.

ومن هنا بدأ تأثر توماس مان بتولوستوي الذي وجد في رواياته وتقنياته الكتابية ما أراد الاستفادة منه في أعماله القادمة وتطويرها. ومن هذه التقنيات استمرار ربط أحداث الرواية بالموضوع الأساس الذي تطرحه وهو ما أسماه النقاد الشكل التلقائي ـ الذاتي «آوتوريتي» «Autority» الذي يجمع بين أقصى درجات الوضوح

وأقصى درجات الأهمية من غير أي خوف جراء تكرار التفاصيل، إذا توجب هذا التكرار في مكانه المناسب. وهكذا يمكن القول إن الفرنسي «بورجيه» في البداية، ثم نيتشه وشوبنهاور قد أعطوا توماس مان تأكيداً لآرائه وتشجيعاً على متابعتها، بينما كان تولوستوي مثله الأعلى وأستاذه من النواحي التقنية والإبداعية. ودفعه لمزيد من الاطلاع على الأدب الروسي المزدهر في تلك الفترة. وتوالت أعمال توماس بالصدور ببطء، وأشهرها «توني كروغر» و«السمو الملكي» ثم «الموت في البندقية». ويقول بعض النقاد إنها لم تكن كلها في مستوى «سقوط عائلة» التي ألفها في شبابه، والتي طُبعت للمرة الخمسين في عام 1910 وحصل بوساطتها على جائزة نوبل للآداب عام 1929.

تزوج توماس مان في شباط 1905 طالبة البكالوريا وابنة الأستاذ الجامعي للرياضيات «كاتيا برينغسهايم»، ووضع بذلك حداً لإشاعة حامت في الأفق حول عدم رغبته في النساء، وربما حبه للرجال انطلاقاً من وصف بعض شخوصه الذي بالغ فيه قليلاً من النواحي الجسدية مثل «توني كروغر» و«كين كياتون» في «المخدوعة»، وكذلك يوسف في «يوسف وإخوته» وبريبيسلاف هيبه في رواية «الجبل السحري». وقد رد توماس عام 1905 على تلك الإشاعة بالقول: «إن افتتاني بالجمال الإلهي الذي منحه الله للرجل ينبع دون شك من حبي لهذا الجمال الذي يتفوق في رأيي على جمال النساء».

وكان بيت أستاذ الرياضيات الجامعي عم توماس يعج

دائماً بكبار العلماء ورجال الفكر والمؤلفين الموسيقيين والفنانين الذين التقوا بصهر العائلة توماس مان وعبروا عن إعجابهم بأدبه وشخصه، ولم يكتب توماس شيئاً مهماً عن زوجته كاتيا إلا بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على زواجهما فقال: «هذه المرأة التي تقاسمني حياتي الصعبة القاسية بصبر وعناء وشجاعة ولا أدري كيف كنت سأجتاز هذه السنوات لولا وقوفها إلى جانبي برقتها وحيويتها المتدفقة». وقد تسلمت «كاتيا مان» إدارة شؤون زوجها المالية المتعلقة بالنشر وبوسائل الإعلام المرافقة له وأنجبت له ستة أطفال نصفهم صبيان. وازداد تألق توماس في مجتمع ميونيخ المخملي والثقافي إلى يوم 3 آب سنة 1914 حيث أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا، وحظي هذا الإعلان بتأييد جماهيري صاخب رافقه استنكار عدد قليل من المثقفين والشعراء والصحافيين كان في مقدمتهم توماس مان الذي انطلق صوته المناهض للحرب مرتفعاً وقوياً. وكتب مقالات عديدة يطالب بالديمقراطية وحق الشعوب في العيش بحرية وسلام، بينما كان أنصار الحرب ينادون «بتفوق العرق الألماني وحضارته العريقة وضرورة حمايته من التأثيرات الغربية الهجينة».

وفي عام 1916 صدرت مع نهاية الحرب وبأمر من القصر الملكي البريطاني ترجمات أعمال توماس مان إلى اللغة الإنكليزية ما أكسبه شهرة عالمية، رافقها ظهور فكرة الجمهورية الألمانية التي دعا إليها توماس بحماسة ونشاط سياسيّ واضح المعالم، ووصفه في تشرين الأول عام 1922

بأنه نشاط اجتماعي وإنساني في جوهره، وضمّنه بحثاً بعنوان «الشذرات الأولى للقضية الإنسانية».

وتعاقبت الأحداث السياسية في ألمانيا حتى فاز القوميون الاشتراكيون «النازيون» بعدد هائل من المقاعد في انتخابات أيلول عام 1930، وكان توماس يعارض أهداف هذا الحزب ويتهمه بالعنصرية وكان يدعو إلى الاشتراكية الوطنية الاجتماعية المتحالفة مع قوى الشعب العامل، وكتب في هذه الفترة قصصاً وروايات ذات طابع سياسي مثل «ماريو والساحر» و«السيد والكلب» «لا نظام وباكورة آلام» وغيرها. وكان يحذر من الديكتاتورية النازية وحكم الحزب الواحد. ووصلت إليه في منزله في ميونيخ ألوف الرسائل المؤيدة لآرائه المتحررة الديمقراطية وثقته بالشعب الألماني. وهي الآراء التي كان يلقيها في خطابات ولقاءات أدبية على جمهوره الواسع من الناس ولاسيما بعد أن نجح «آدولف هتلر» في الوصول إلى منصب المستشار في 30 كانون الثاني عام 1933. وبدأ توماس يفكر في الهجرة وتنقل بالفعل بين عدد من المدن الأوروبية، ثم ألقى عصا الترحال في أمريكا وفي مدينة لوس أنجلوس التي سبقه إليها عدد من الشعراء والأدباء المناهضين للنازية الهتلرية، وذلك «لأنها كانت تحتقر الفكر والفن وتسعى إلى السلطة والسيطرة بقوة العنف واستغلال طيبة الجماهير وحماستهم العفوية». وقرر توماس البقاء في الولايات المتحدة بعد أن منحته جامعة هارفرد الأمريكية درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب، مع

زميله القديم وجاره في الغربة «ألبرت آينشتاين»، واستقبله الرئيس الأمريكي روزفلت مع زوجته في البيت الأبيض باعتباره ضيفاً عزيزاً، وعرض عليه الجنسية الأمريكية لكن توماس رفضها بلطف وإصرار.

وفي أمريكا أكمل توماس روايته الشهيرة «يوسف وأخوته» التي كان قد بدأها في ألمانيا عام 1926 وكتب في مقدمتها يقول: «لن أنساق إلى الانفعال والحماسة الدينية، فقد استقيت موضوع كتابي هذا من «الكتاب المقدس» نفسه. إنها بركة يعقوب على يوسف وهي بركة السماء العليا وبركة الأرض العميقة في وقت واحد. هذه هي نقطة انطلاقي في كتابة هذه الرواية».

بعد عام واحد من إقامته في كاليفورنيا نشبت الحرب العالمية الثانية عام 1939 وكان توماس قد كتب «لوته في فايمار» وأرسلها للطباعة في ستوكهولم، وعكف على إكمال المجلد الرابع والأكثر شفافية ومرحاً من رواية «يوسف وإخوته» وبدأ مباشرة برواية «دكتور فاوست» وانتهى منها في شباط 1942، وخطط لروايتي «المختار» و«المخدوعة» لكنه لم يكملهما إلا بعد عودته إلى أوروبا وإقامته في مدينة زيوريخ السويسرية حتى وفاته في 1955/8/12.

وصف توماس نهاية الحرب بهزيمة ألمانيا النازية واستيلاء قوات الحلفاء عليها بأنه «تهديد آخر للسلام والحرية وحق الشعب الألماني في تقرير مصيره من الداخل وليس من الخارج»، واستقبلته ألمانيا المحتلة بعد الحرب

بحفاوة وتكريم نادرين، لكنه فضل الإقامة في سويسرا قريباً من وطنه وبعيداً عن المحتلين رغم زياراته المتعددة ومشاركاته في المؤتمرات واللقاءات الأدبية والسياسية الألمانية. ورفض عرض برتولت بريخت القدوم للعيش في جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة والتي يحكمها الشيوعيون، وقال في رده وفي أحد خطاباته: «أنا لاأعترف بهذه المناطق المبعثرة هنا وهناك وطناً لي. ولن أقيم إلا في وطني الألماني الواحد الكبير الحر الذي لم أكتب في حياتي إلا عنه وعن أهله وبلغته، كتابة لم تخضع ولن تخضع لعبث الاحتلال والمحتلين. وإذا كنت قد عشت مغترباً خارج وطني فلن أستطيع العيش مغترباً داخله».

قال توماس بعد رحلة قام بها عام 1930 إلى مصر وفلسطين: «لم يخترع شعراء أوروبا وأمريكا الكبار أي شيء جديد. وكل ما فعلوه طوال حياتهم هو أنهم قرؤوا بتمعن وعمق ما وصلهم من حضارات الشرق وآدابه وملؤوا به أرواحهم ثم أعادوا صياغته بقوالب جديدة».

عدنان حبال

1

قام «غوستاف آشنباخ» أو «فون آشنباخ»، كما أصبح اسمه رسمياً منذ أن بلغ الخمسين من عمره، بعد ظهر يوم ربيعي من أحد أعوام القرن العشرين، وهو عام كان يهدد قارتنا «أوروبا» لعدة شهور بسحنة كئيبة خطيرة، قام وحده انطلاقاً من شقته في شارع «برينس ريغنتن» في ميونيخ بنزهة بعيدة المدى. كان متوتراً لما بذله خلال ساعات قبل الظهر من عمل صعب وضخم مازال يتطلب منه حداً أقصى من الحذر والعناية والتعمق والدقة والإرادة، لأنه لم يستطيع حتى بعد تناول وجبة الغداء لا أن يوقف استمرار نشاط محرك الكتابة في داخله، وهو المحرك الغريزي المتدفق الذي تنسب إليه فصاحة الخطيب الروماني «شيشرون»، ولا أن يظفر بقيلولة استراحة ضرورية كي تعيد إليه بعض قوته التي تعاظم استنزافها طوال النهار. وهكذا انطلق بعد الشاي إلى الهواء الطلق آملاً منه أن يساعده مع الحركة في ترميم قواه وتحضيره لمساء منتج مفيد.

كان الوقت بداية أيار الذي أتى، بعد أسابيع باردة

رطبة، صيفاً حاراً مغشوشاً، إذ كانت الحديقة الإنكليزية مع اخضرارها الضعيف، ملأى بالبخار كما تكون في شهر آب وقد تكاثرت قرب وسط المدينة العربات والمتنزهون المشاة. ووقف آشنباخ، حيث قادته دروب ساكنة، أمام حارس المرج الأخضر يتأمل فترة من الزمن مطعم الحديقة الشعبي والعربات والأكشاك المحيطة به ثم عاد مع غروب الشمس خارجاً من الحديقة عبر ممرها العريض متجهاً إلى منزله. كان يشعر بالتعب وبقرب هبوب عاصفة فوق حي «فورينغ»، وأراد ركوب الترام المار بحذاء المقبرة الشمالية والذاهب بخط مستقيم إلى المدينة.

وجد بالمصادفة موقف الترام والرصيف حوله، فارغين تماماً من الناس. لم يكن ثمة حافلة أو عربة، لا على شارع «أونغير» المعبّد والذي تمتد على جانبه سكة الترام المتجهة إلى شفابينغ، ولا على شارع «فورينغ» العريض نفسه. وكان السكون مخيماً أيضاً على ما وراء أسوار المحاجر المنتشرة هناك، وهي محاجر تباع فيها صلبان حجرية منحوتة ولوحات تذكارية وأثريات ألمانية وتشكل بمجملها حقلاً ترابياً غير مأهول. وكانت هناك كنيسة من الطراز البيزنطي تبدو على الجانب الآخر صامتة أيضاً، مع تلاشي ضوء النهار المغادر وتلمع واجهاتها بالصلبان الإغريقية والكتابات الكهنوتية المزخرفة بألوان مضيئة وحولها نقوش متناظرة بحروف مذهبة، تشكل كلمات مختارة تتعلق بالعالم الآخر، مثل: «سيدخلون بيت الله» أو «فليستمدوا النور الأبدي». ووقف الشاعر منتظراً

عدة دقائق وقد تشتت ذهنه مع قراءتها وتاهت روح عينيه في صوفيتها البراقة. وعندما صحا من شروده العميق رأى في البوابة، قرب تمثالين لحيوانين أسطوريين يقومان بحماية الدرج المؤدي إليها، رجلاً جعل منظره غير العادي أفكار الشاعر تتحول إلى اتجاه مغاير تماماً.

لم يكن واضحاً ما إذا كان هذا الرجل قد خرج من القاعة عبر بابها البرونزي أو أتى من الخارج صعوداً من غير أن يلحظه أحد. ومال آشنباخ، دون تفكير خاص في سؤال كهذا، إلى الأخذ بالاحتمال الأول. كان الرجل طويل القامة نحيفاً حليق الذقن ذا أنف أفطس لافت للنظر، أحمر الشعر، له بشرة بيضاء منقطة بالأحمر وكان واضحاً أنه لا ينتمي إلى العرق البافاري، كما أن قبعته العريضة المدوّرة تماماً والمصنوعة من لحاء الشجر قد غطت رأسه بالكامل ومنحت منظره هيئة الأجنبي القادم من بلد بعيد. كان يحمل على ظهره حقيبة من تلك التي يستخدمها هنا أهل البلد مربوطة إلى كتفيه ويرتدي بذلة مزنّرة مصفرة اللون مصنوعة من الصوف الخشن، ويتأبط بيده تحت كتفه الأيسر معطفاً رمادياً للوقاية من المطر. كان يتكئ تحت الكتف الأيمن على عصا ذات قاعدة حديدية جعلها مائلة باتجاه الأرض فاستخدمها عكازاً يمشي بمساعدتها على قدمين متصلبتين. بدا رأسه مرفوعاً بحيث أن جوزة عنقه النحيل بدت بارزة عارية وسط ياقة القميص الرياضي الواسعة. كان ينظر، بعينين لا لون لهما محاطتين برموش حمراء وقد ارتسم بينهما وعلى جانبي أنفه المرفوع أخدودان

عموديان عميقان، متجسساً إلى المدى البعيد. وهكذا ربما تركت وقفته العالية المتعالية هذا الانطباع ـ بدا مسيطراً جسوراً بل فتاكاً مكشراً في مواجهة أشعة الشمس الغاربة، إن لم تكن تكشيرته صفة خلقية دائمة على وجهه. ذلك لأن شفتيه ظهرتا مبتعدتين تماماً عن أسنانه وقصيرتين جداً بحيث وصلتا إلى اللثة وتركتا الأنياب بارزة بيضاء بينهما.

من الممكن أن آشنباخ في خضم شروده وعدم تدقيقه في هيئة الغريب، لم يكن منتبهاً بما يكفي وفوجئ بنظرات معاكسة صدرت عن الرجل مباشرةً إلى عينيه وحملت إعلان الحرب والتحدي حتى النهاية وإرغام الخصم على الانسحاب، ما أزعج آشنباخ وجعله يسلك الطريق الملتف حول السور وقد اتخذ قرار عدم الاهتمام بهذا الإنسان، ونسيه في الدقيقة الأولى التالية. لكن هيئة الغريب الترحالية ربما أثرت في قوة خيال الشاعر أو لَعِبَ أي دافع نفساني أو روحاني دوراً في إحساسه المفاجئ بتوسع نادر ينطلق من داخله فيتحول إلى اضطراب متناوب الشدة ورغبة شبابية عطشى إلى البعيد. إنه إحساس يفور بالحياة وهو جديد أو ربما قديم تلاشى مع الزمن والإهمال، لكنه أرغم صاحبه على الوقوف مقيّداً ويداه خلف ظهره محدقاً في الأرض يبحث عن طبيعة هذا الإحساس المفاجئ وغايته.

كانت رغبة ما في السفر قد حلت به مثل نوبة فعلية وتصاعدت إلى انفعال وخداع بصيرة. وكانت هذه الرغبة الواضحة وقوة خياله، التي لم تنعم براحة منذ استنزافها خلال ساعات العمل، قد شكلتا لديه نموذجاً لِما على الأرض

المتنوعة الرحبة من ظواهر إدهاش وهولٍ تكشف عن نفسها بنفسها. فرأى أرضاً مزروعة وأخرى مغمورة بماء المستنقعات تحت سماء يغطيها السحاب الكثيف، أحسّ بالرطوبة وبالخصب وبالخوف. وجد نفسه في شكلٍ من أشكال العالم الفطري، المكوّن من دروب صحراوية وجزر وشُعُبٌ نهرية تمتد إلى وحول. رأى من طرف لآخر في الأفق سيقان نخيلٍ غزيرة اللحاء تبرز في هاوية نباتية كثيفة الورق وغريبة الأزهار. رأى أشجاراً بأشكال مدهشة تنحني جذورها هبوطاً من الهواء إلى التربة مثل أمواج مُسمّرة ذات ظلال خضراء. وبين الورود السابحة حولها والتي كانت بيضاء بلون الحليب وكبيرة مثل القِصاع، رأى طيوراً من أنواع غريبة، عالية الأكتاف ذات مناقير شوهاء وقد وقفت في المياه الضحلة بلا حراك تنظر إلى جانبها. رأى بين أشجار البامبو الكثيفة وقصباتها المعقدة بريقَ عيون نمرٍ يكمن ويتربص - وأحس بدقات قلبه تتسارع جزعاً ورغبةً غامضة في المغامرة ثم غابت الرؤيا. مسح وجهه وهز برأسه، ثم تابع نزهته محاذياً لأسوار المحاجر.

كان يفضل الاستفادة، ما أمكنه ذلك، من ميزات اكتشاف العالم وينظر إلى الترحال على أنه مجرد تدبير صحي ضروري، قد يصطدم أحياناً مع الحواس والرغبات. بدا مشغولاً بالمهام التي فرضتها عليه ذاته والذات الأوروبية، ومثقلاً بهمّ التزامه بالنتاج الفكري وعازفاً عن التأمل والشرود كي يثبت صلاحيته عاشقاً للعالم الملون

حوله. اكتفى تماماً بالانطباع عن سطح الكرة، الذي يتولد عند أي شخص لم يتحرك بعيداً عن دائرة وجوده. ولم يحاول قط الخروج من أوروبا. ومنذ أن بدأت حياته تميل إلى الزوال ببطء وتضعف أمام شعوره بالمسؤولية كفنان، صار همه أن لا ينقضي الوقت قبل أن ينتهي من عمله ويستسلم للراحة، وأن لا تظل المسألة مجرد نزوة يجب السيطرة عليها. وهكذا انحصر معظم حضوره الخارجي على المدينة الجميلة التي أصبحت وطنه، وعلى مقره الريفي الخشن أعلى الهضبة والذي كان يقضي فيه أيام الصيف الماطرة.

لقد استطاع بوساطة تعقله وتربية الذات التي تعوّد عليها منذ شبابه أن يصحح ويوازن ما انتابه من هواجس جاءت متأخرة ومفاجئة. كان ينوي أن ينجز العمل الذي عاش من أجله حتى نقطة معينة كي يتسنى له الرحيل إلى الريف. أما فكرة القيام بجولة حول العالم، وهي فكرة راودته شهوراً وصرفته عن شغله، فقد بدت الآن رخوة وارتجالية ومستبعدة عن التفكير الجاد. لكنه عرف تماماً سبب ماتحمله من إغراء غير متوقع يتجسد في نزوعه إلى الفرار. واعتراف بهذا الشوق إلى البعيد، إلى الجديد وبتلك الرغبة الجامحة في التحرر والانطلاق والنسيان. إنها رغبة في الابتعاد عن العمل وعن الأمكنة اليومية المعتادة لوظيفة هامدة باردة رغم توترها الشديد. وهي وظيفة كان يحبها ويحب معها ذلك الصراع المرهق والمتجدد يومياً بين إرادته الصلبة العنيدة والمجربّة مراراً من جهة، وذلك الملل

الموهن المتفاقم، الذي لا يطيقه أحد ولا يسمح له بأية حال وبأية طريقة أن يتعدى على العمل المنتج ويفسده عبر إشارات تدل على الفشل والخمول من جهة أخرى. ولكن بدا له مفهوماً وجوب عدم المغالاة والعناد في خنق حاجة آنية ملحة. كان يفكر في عمله وفي الموضع الذي اضطر إلى تركه اليوم أيضاً، كما فعل بالأمس، والذي لا يبدو بحاجة إلى تدقيق العقدة العائقة بينهما. ثم تراجع وهو ينتفض مشمئزاً لهذه المحاولة. وهو لم يجد هنا صعوبة غير عادية، بل أحس بشيء من الاسترخاء يشبه وسواس الرفض، الذي يتمثل في شرهٍ لا حد له ولا سبيل لإرضائه. وقد كان هذا الشره نفسه يشكل طبيعة موهبته الشابة ومضمونها. ومن أجله كان يكبح جماع مشاعره ويجمدها، لأنه عرف أنها تميل إلى الاكتفاء بالمصادفة السعيدة أو بنصف الكمال. فهل ثأر إحساسه الذليل لنفسه منه بأن غادره وهجره وامتنع عن استيعاب فنه وتجنيحه، واصطحب معه بعيداً كل بهجة وكل سحر في الشكل والتعبير؟ إنه لا ينتج عملاً رديئاً وهذا ما ميزه على الأقل عبر السنوات التي عاشها. أحس واثقاً بتفوقه في كل لحظة من لحظات شجاعته، التي قدرتها الأمة فيه وكرّمتها، رغم أنه لم يكن مسروراً بذلك كله وبدا له أن عمله يعاني نقصاً بصورة واضحة، يخلو من طابعِ نزوةٍ متحرقة للتلاعب، متدفقة في متعة الكتابة، ومولدة لمتعة الكتابة، أفضل مما قد يفعل الغنى والعمق. كان يخاف الصيف في الريف، وخاصة في ذلك المنزل الصغير مع الخادمة التي تعد له

الطعام والخادم الذي يحمله إليه. يخشى تلك الملامح المألوفة لقمة الجبل وسفوحه وهي تحيط من جديد بتقاعسه المزعج. وهنا توجب اتخاذ قرار بعدم الخلود إلى الكسل والبلادة والحاجة إلى هواءِ عرضِ البحر الذي يرطب دمه، وقليلٌ من اللامتوقع، يجعلان الصيف فعلاً مقبولاً وكريماً. السفر إذن. وأحس بالرضا لفكرة السفر ليس بعيداً جداً أو إلى غابة النمور، بل لقضاء ليلة واحدة في عربة نوم واستراحة تمتد ثلاثة إلى أربعة أسابيع في محطةٍ كوسموبوليتية مخصصة لقضاء عطلات العالم في الجنوب اللطيف الضاحك.

هكذا كان يفكر أثناء اقتراب حافلة الترام من شارع «أونغير»، ويقرر مع صعوده إليها أن يدرس هذا المساء خارطة وبرنامج سفر القطارات، وخطر بباله على الرصيف أن يبحث من جديد عن ذلك الرجل ذي القبعة والذي كان على كل حال رفيق إقامته القصيرة الزاخرة هنا. لكنه لم يجد الرجل لا في مكانه السابق ولا على موقف الترام أو في الترام نفسه.

2

إنه كاتب السيرة الملحمية لحياة «فريدريش فون برويسن(*)»، والفنان الدؤوب الذي جمع ونسخ عبر اجتهادٍ خيوطَ روايةٍ غنية الشخوص تقاطعت فيها أقدار عدد كبير من الناس، في ظل فكرة واحدة، هي رواية «مايا»، وأبدع قصة طويلة بعنوان: «البائس». وأوضح لجيل الشباب إمكانية اتخاذ القرار الأخلاقي بالوقوف إلى جانب المعرفة المتعمقة. إنه أخيراً (وبهذا نكون قد أشرنا باختصار إلى بعض أعمال فترة نضوجه) كاتب الصراع الانفعالي الدائر حول «الروح والفن» في كتاب استطاعت قوة حجته وفصاحة منطقه أن تثير الكثير من الاهتمام الجاد، حتى وقف بجدارة إلى جانب «حكم العقل» للشاعر شيللر حول الشعر العاطفي الساذج. إنه «غوستاف آشنباخ»، الذي وُلد في بلدة ل. من مقاطعة سيلزيا، ابناً لموظف كبير في القضاء. وكان أجداده ضباط جيش أو قضاة أو إداريين ذوي نفوذ. كانوا رجالاً عاشوا حياتهم الصارمة الجافة

(*) فريدريك: ملك بروسيا. م.

المحترمة في خدمة الملك والدولة. ولم تظهر بينهم علائم قدرات فكرية أو فنية سوى مرة واحدة في شخص واعظ كنيسة، ومن الجيل السابق أضافت أم الشاعر للعائلة بدمها الحار حيوية وإحساساً أكثر، فقد كانت ابنة قائد جوقة كنسيةٍ تشيكي. وقد أخذ الشاعر عنها صفات عنصر غريب في مظهره كان في داخله قد نشأ وتكون كفنان نتيجة اتحاد وظيفي بين ضمير حساس نزيه صارم ونبض قلب ناري مفعم بالأسرار.

بما أنه كان بطبيعته سليل عز ومجد فقد ظهر أمام الآخرين، إن لم نقل ناضجاً قبل الأوان، رصيناً ولبقاً بسبب ما اتصف به صوته من أهمية حاسمة. كان ما يزال طالباً في الثانوية عندما صار له اسم مرموق. وبعد عشر سنوات تعلم وهو قاعد وراء طاولة الكتابة كيف يكسب الاحترام، ويصرف شؤون مقامه المجيد بوساطة جملة أو رسالة قصيرة مقتضبة (لأن مشاغله ومتطلباته، بوصفه رجلاً ناجحاً وجديراً بالثقة، كانت كثيرة ومتعددة) ويبقى طيباً ودوداً وكبير الأهمية. وصار في الأربعين من عمره مرهقاً من الإجهادات والتقلبات في عمله الوظيفي وفضّه لرسائل تحمل طوابع كل بلدان العالم.

كانت موهبته في الوقت نفسه بعيدة عن الغثاثة والاختلال وطامحة إلى كسب مصداقيتها لدى الجمهور العريض، وكذلك الإعجاب بها والتجاوب معها وتشجيعها لدى النخبة الذواقة من الناس. وهكذا التزم منذ شبابه بتحقيق إنجازات استثنائية في مختلف المجالات ولم يعرف

قط ما يقترن بالشباب عادة من تراخٍ وإهمال ولامبالاة. وعندما مرض في فيينا وهو في الخامسة والثلاثين من عمره قال أحد المراقبين الظرفاء في جمع من الناس: «انظروا هذا آشنباخ الذي عاش دائماً هكذا»، وشد أصابع قبضة يده اليسرى كمن يستعد لتوجيه لكمة، وأضاف قائلاً: «إنه لم يكن ليعيش هكذا قط». وأرخى اليد اليمنى وتركها تتدلى بلامبالاة على مسند الكرسي. وقد تحققت هذه المقولة، وكان الجريء والأخلاقي فيها أن طبيعة الشاعر لم ترضَ بأقل من بناء مثقف صلب متين وملتزم لم يولد معه بل استطاع اكتسابه وإخصابه باستمرار.

لقد فَصَلَته الرعاية الطبية صبياً من المدرسة وأرغمته على الدروس المنزلية. فنشأ وحيداً من غير رفاق وأدرك في الوقت المناسب أنه ينتمي إلى جيل لا تندر فيه الموهبة بل البنية الصحية، التي تحتاج إليها الموهبة لتفتحها، جيل سرعان ما يستنفد فنانوه طاقتهم الإبداعية ويتلفون باكراً. لكنَّ أحبّ الكلمات إليه كانت «الصمود»، ورأى في روايته عن حياة «فريدريش» تقديساً إلهياً لهذه الكلمة الآمرة، التي بدت له تعريفاً عميقاً للفضيلة المعذبة. كان أيضاً يتوق رغبةً للعيش عمراً طويلاً، ويعتقد دائماً أن الفن الذي يمكن وصفه حقاً بالعظمة والشمول والشرف هو الفن الذي يستحق البقاء على درجات الإنسانية كلها أينما أينعت ثماره من أي نوع وخصوصية.

ولأنه أراد أن يحمل المهام التي وضعتها موهبته على كتفيه الغضّتين والذهاب بها بعيداً فقد احتاج أعلى درجات الانضباط التي كانت، لحسن الحظ، إرثاً ولادياً عن أبيه.

وصار في الأربعين والخمسين من عمره، أي في سن يتحول فيها الآخرون إلى الإسراف في التأمل والأحلام المؤجلة، يبدأ يومه بسكب الماء البارد على صدره وظهره ثم يضع وراء أوراق الكتابة بعض الشموع في حوامل فضية عالية. ويقعد كي يعطي القوة التي تجمعت لديه أثناء النوم قرباناً على مذبح الفن خلال ساعات الصباح المملوءة بالحماسة للعمل الوجداني. كان شيئاً مبرراً بل كان دليلاً على انتصار أخلاقه كلما رأى البعض أن عالم «مايا» والمواد الشعرية ـ القصصية التي تتكشف فيها حياة «فريدريش» الملحمية البطولية، مجرد حصيلةَ جهدٍ مكثف إضافي ونَفَسٍ طويل دؤوب. بينما هي في الحقيقة إنجازات يومية صغيرة تكونت من مئات الإيحاءات المنفردة ونمت حتى العَظَمة وتطورت نحو السمو، ولهذا كانت متميزة ورائعة. ولأن مبدعها بذل فعلاً بإصرار وإرادة صلبة، تقارنان بإرادة وصلابة فاتح مسقط رأسه سيلزيا، ولسنوات طويلة، ساعات من العمل المتعمق المتألق وهو يتحمل التوتر والقلق اللذين يثيرهما فيه العمل نفسه.

لكي يستطيع إنتاج فكري هام أن يمارس تأثيراً واسعاً وعميقاً في آن معاً، يتوجب وجود علاقة قرابة بل بالأحرى لُحمة متجانسة بين مبدعه والناس الذين يعيشون معه بمختلف اتجاهاتهم. إن الناس لا يعرفون لماذا يمجّدون عملاً فنياً ويحبونه. هم بعيدون في الواقع عن الخبرة أو الخلفية الثقافية، لكنهم يعتقدون باكتشافهم مئات المزايا في عمل قبل أن يتجاوبوا معه ويتلقوه

باحترام. ويبقى السبب الحقيقي لإعجابهم به شيئاً غير قابل للوزن والقياس، إنه المحبة أو الاستلطاف. ولقد عَبّر آشنباخ، مرة ومباشرةً في موضع يكاد يخفى على القارئ، أن كل شيء عظيم ينتصب أمامنا إنما ليمثل الإصرار والعناد ويتحدى الهم والعذاب والفقر والهجر والضعف الجسدي وأعباء الحياة وانفعالاتها وآلاف المعيقات في طريق عظمته وقد تغلب عليها كلها. وهذه ليست مجرد ملاحظة بل نتيجة خبرة وهي بالتحديد صيغة حياته ومجده ومفتاح عمله الإبداعي. ما الذي يضيره إلباس شخوصه المتميزة الطابع الأخلاقي والسلوك المهذب الظاهري؟

لقد كتب أحد المحللين ثاقبي النظر باكراً عن نموذج البطل الذي كان يفضله هذا الكاتب، ويعتمده ويكرره في إصدارات متباينة، فقال إنه «مشروع رجولةٍ شبابية مثقفة، يقف ساكناً وهو يكز أسنانه على بعضها البعض بزهوٍ خجول بينما تخترق جسده السيوف والرماح». وكان هذا التعبير جميلاً بروحه ودقته رغم سلبيته. لأن الصمود أمام ضربات القدر والشجاعة في العذاب لا يعنيان مجرد التجلد والتحمل، بل هما شكلان لإنجاز عظيم وانتصار إيجابي. إن لوحة «سباستيان»(*) تُعد أجمل رمز ونموذج إن لم يكن للفن عموماً فهي رمز للفن الذي نتحدث عنه. ولينظر المرء إلى داخل هذا العالم المحكي ليرى السيطرة الأنيقة على النفس وهي تخفي عن عيون العالم حتى اللحظة الأخيرة تجويفاً عميقاً يدل على زوال الحياة، ويرى البشاعة

(*) أحد الرهبان المتصوفين القدماء. م.

الصفراء مثلومة الإحساس والتي تستطيع أن تضرم النار في شهوتها المتعاظمة فتحولها إلى شعلة نقية، بل أن تحلّق بنفسها وتسمو إلى مراتب الجمال. إنه يرى الإغماءة الشاحبة التي تستمد قوتها من أعماق روحانية لاهية كي تخضع شعباً مغروراً طائشاً بكامله وتُركعه أمام أقدامها، أقدام الصليب. يرى الدعامة الكريمة في خدمة فارغة صارمة للشكل، والحياة المزيفة الخطرة والانفعال الذي يسبب الإعياء، وكذلك الفن الذي يمارسه المحتال بالفطرة. إذا نظر المرء إلى ذلك المصير كله والكثير مما يشابهه تسرب إلى نفسه الشك ما إذا كان ثمة بطولة أخرى غير بطولة الضعف. وإلا فما هي البطولة الأكثر معاصرةً من هذه؟ لقد كان غوستاف آشنباخ شاعر أولئك الناس الذين كانوا يعملون إلى حد الإرهاق، يحملون من الأثقال أكثر مما يطيقون، وينقادون للبقاء على قيد الحياة، أولئك الأخلاقيين في شغلهم والذين يكسبون القليل، ولفترة من الزمن، بعض علامات العظمة بما في إراداتهم من حماسة وفي تدبيرهم من ذكاء وما يملكونه من وسائل هشة سريعة العطب. إنهم كثيرون، وهم أبطال هذا العصر، وقد وجدوا أنفسهم مجدداً في عمله الروائي ورأوا أنهم معترفٌ ومحتفى بهم ومحترمون، ولذا كافؤوه بالشكر ومجّدوا اسمه.

كان ما يزال يافعاً وفجّاً في تعامله مع الزمن الذي لم يُحسن نصحه. بدا متعثراً أمام الآخرين، فأساء التصرف معهم وكشف لهم عن ذاته وارتكب سواء في القول أو الفعل مخالفات تجاه اللباقة والفطنة. لكنه كَسِبَ الكرامة التي يولد

معها، حسب رأيه، داخل كل موهبة عظيمة إصرار غريزي واخز كالشوك. نعم، ويمكننا القول إن مجمل تطوره قد استمر صعوداً إلى الكرامة بوعي وإلحاح متجاوزاً كل عوائق الشك والسخرية.

إن وضوح الصورة لديه وحيويتها وعدم خضوعها للروحانية أمور شكلت كلها استمتاع جماهير المواطنين بكتاباته، لكن الشباب المتوثب المتحرر لا يمكن كبح جماحه إلا بما يعترضه من إشكاليات. وقد كان آشنباخ إشكالياً وباحثاً عن المشاكل وكان متحرراً كأي شاب آخر. لقد سخّر الروح ومارس السطو على المعرفة وطحن حصاد سابقيه. أفشى بالأسرار وشكك في المواهب وغَدَرَ بالفن. نعم. وبينما كانت أعماله التصويرية تسّلي قراءها البسطاء وتمتعهم وتحترمهم وتبعث فيهم النشاط، كان الفنان الشاب يثير قلق أترابه أبناء العشرين سنة عبر أفكاره الكافرة بصلاح البشرية والمرتابة في ماهية الفن نفسه.

ولكن يبدو أن فكراً متوقداً وأصيلا لا يستسلم أسرع وأعمق من استسلامه أمام فتنة المعرفة بمرارتها وتأثيرها الفعال. والواقع أن بحث الشاب السوداوي الوجداني عن الجذور لا يعدو وصفه بالضحالة إذا قورن بالمواقف العميقة التي اتخذها الرجل الأديب فيما بعد، عندما أنكر العِلم ورَفَضه وتجاوزه رافع الرأس إذا رأى فيه شلّ أو سلبَ أو عدم احترام إرادة الإنسان وشعوره وفعله وانفعالاته. وإلا فكيف نفهم الرواية الشهيرة «البائس»

سوى أنها انفجار الغثيان إزاء علم النفس المعاصر البذيء الذي يجسده شخص وغد سخيف مخنث يتسلل هارباً من مصير يرى فيه زوجته ترتمي، بسبب عجزه ونذالته وسوء أخلاقه، بين ذراعي فتى جميل أمرد، وهي تظن أنها ترتكب ذلك رداً على خسة زوجها وحقارته؟ إن قوة الكلمة التي أسقطت الحثالة تبشر بالارتداد عن نظرية الارتياب الأخلاقي وعن كل تعاطف مع الحضيض، كما تعني رفض رخاوة الشفقة أو تَفَهّم كل شيء والغفران لكل شيء. وما جرى أو ربما تم هنا تحضيره هو «معجزة الرصانة» التي وجَدت فيما بعد توضيحاً لها في حوار للكاتب لا يخلو من التركيز على تعبير يكتنفه الغموض. إنها علاقات نادرة. فهل كانت نتيجة فكرية لذلك «الانبعاث» ولتلك الكرامة الناشئة والصرامة، بحيث استطاع المرء في الوقت نفسه أن يلاحظ تضخماً غير عادي في إحساسه بالجمال، وفي نقاوة ونبل وبساطة وتوازن الشكل الذي يتخذه إنتاجه الفني فيُكسبه من الآن فصاعداً طابعاً حسياً وإرادياً أيضاً يمتاز بالريادة والكلاسيكية؟ لكن القرار الأخلاقي على الجانب الآخر من العلم، والمعرفة الناشطة في حل عقدة ووضع غيرها، ألا يعني هذا القرار تبسيطاً ونظرة أحادية الجانب إلى العالم والنفس الإنسانية وبالتالي أيضاً دعماً للشر والمحرّم واللاأخلاقي؟ أوليس للشكل إذن وجهان؟ أليس أخلاقياً ولا أخلاقي في آن معاً؟ أليس أخلاقياً كنتيجة وتعبيراً عن التربية، وغير أخلاقي عندما يتضمن في داخله

تلك اللامبالاة الغريزية أو يكون هادفاً إلى إخضاع ما فيها من فضائل إلى سلطتها المتفاخرة غير المحدودة؟

ومهما يكن من أمر، فإن التطور عملية مصير وقدر محتوم، فكيف يمكن أن تجري من غير مشاركة الناس وثقتهم ومواكبتهم تماماً، وكيف تتم عملية تطور الفنان الشاعر وتجربته من غير بريق المجد والتزاماته المستحقة؟ وحدها الرعوية الأبدية تجد من الممل والداعي للسخرية أن تنمو موهبة كبيرة في كشك منفلت للدمى، وتعوّد نفسها على احترام كرامة وسمو الفكر الروحاني. وتؤمن بالتقاليد الأخلاقية الملكية الشائكة والانعزالية الملأى بالآلام والصراعات الذاتية القاسية، والتي استطاعت أن تحقق لنفسها السلطة والجلالة لدى الناس. كم من اللعب والعناد والاستمتاع يكمن في تكوين الموهبة داخل الذات! إن شيئاً سلطوياً تربوياً دخل مع الزمن إلى انتاجات غوستاف آشنباخ. واستغنى أسلوبه في السنوات المتأخرة سواءً عن الأفكار الجريئة المباشرة أو عن التلميحات الماكرة. فتحول إلى الإطارات النموذجية والأشكال الثابتة، أو التقليدية المصقولة والحافلة بالصور التشكيلية. وكما يقال عن لويس الرابع عشر أنه كان يفعل أقصى الرجل الذي تقدم في السن كل كلمة بذيئة عن حديثه. وقد حدث في تلك الفترة أن إدارة التعليم المدرسي اقتطفت من إنتاجه صفحات مختارة وضمنتها كتب القراءة في المدارس، وقد سره ذلك ولم يعترض على منحه النبالة من قبل أحد أمراء

ألمانيا الذين وصلوا إلى العرش، مكافأة على تأليفه: «فريدريش». وكان ذلك في حفل عيد ميلاده الخمسين.

بعد عدة سنوات من التشرّد وبضع محاولات إقامة هنا وهناك اختار ميونيخ في الوقت المناسب لتكون مكان سكناه الدائم، وعاش فيها مواطناً يحمل مرتبة الشرف، كما وصف ذلك في حالات خاصة من اشتغاله الفكري. أما الزواج الذي ربطه وهو شاب نسبياً بفتاة تنتمي إلى أسرة متعلمة فقد انتهى بعد فترة سعيدة قصيرة بسبب الموت. وبقيت له ابنة، متزوجة الآن، ولم يكن له ابن قط.

كان «غوستاف فون آشنباخ» رجلاً متوسط القامة أسمر اللون حليق الذقن ذا رأس كبير بالمقارنة مع جسده الرشيق الجميل. وكان شعره الممشط إلى الوراء واللامع في مفرقه قد غزاه الشيب واكتسحه بقوة وكثافة عند صدغيه، وأحاط مثل إطار بجبينه العالي المتجعد والمملوء بالندوب. كانت نظارته الذهبية ذات الزجاج غير المحمي بإطار تضغط بحدة على أعلى أنفه البارز المعقوف كأنوف النبلاء. وكان الفم عريضاً رخواً في بعض الأحيان وفجأة ضيقاً ومتوتراً في أحيان أخرى، ومنطقة الخدين نحيلة ومغضنة والذقن كاملة النموّ بغمازة ناعمة. وكان يبدو أن أحداثاً هامة قد مرت على هذا الرأس المائل جانباً والمتمرس بالآلام. ولابد أن الفن هو الذي تكفل بمهمة تعليمه الفِراسة، التي اكتسبها أصلاً بفعل حياته القاسية المضطربة. لقد ولدت خلف هذا الجبين حوارات ملأى بالغمز والتلميح كما

تخيل الشاعر أنها جرت بين فولتير والملك حول موضوع الحرب. وهاتان العينان المرهقتان المبصرتان عبر النظارة، شاهدتا الجحيم المخضب بالدماء داخل مستشفى ميداني إبّان حرب السنوات السبع. ولو أننا انطلقنا أيضاً من الناحية الشخصية لوجدنا أن الفن حياة عالية المستوى. إنه يمنح السعادة إلى الأعمق في داخلنا ويُمتّعنا بها أسرع. إنه يحفر في سحنات أهله وصنّاعه آثار مغامرات سحرية وروحانية، وهو رغم سكينة وجوده الرهبانية، يُنتج مع مرور الزمن رفاهية وإحساس مرهف كما ينتج الملل والفضول في الأعصاب ونادراً ما استطاعت ذلك حياة مملوءة بالآلام والمُتع المبتذلة...

3

توقف المتشوق إلى الرحيل نحو أسبوعين إضافيين في ميونيخ وهو يتفحص بعد كل نزهة على الأقدام من نزهاته عدداً من الأماكن ذات الطبيعة العالمية والأدبية. وأمر أخيراً بإعداد منزله الريفي وتجهيزه للسكن خلال أربعة أسابيع وسافر في أحد أيام النصف الثاني من أيار بقطار الليل المتجه إلى «تريست»، حيث أقام أربعاً وعشرين ساعة وتابع رحلته صباح اليوم التالي إلى مدينة «بولا» بحراً.

كان يبحث عن الشيء الغريب المتحرر من أي علاقة، والذي يمكن الحصول عليه بسرعة. ولذا أقام في جزيرة كان منذ بضع سنوات يمجدها في مخيلته وتقع قرب ساحل إيستري، يقطنها شعب ذو أسمال بالية ملونة ولغة غريبة وحشية في أصواتها كما تحيط بها صخور متشققة متصلة بالبحر المفتوح. ليس فيها سوى المطر والريح الثقيلة وشركة سياحية نمساوية صغيرة، وهي تفتقر إلى الهدوء وإمكان إقامة أي علاقة حميمة داخلية مع البحر الذي لا يملك سوى شاطئ ناعم رملي. وقد أثار ذلك كله امتعاض

الشاعر وارتيابه في أنه وجد المكان الذي طمح إليه. وخالج وجدانه، وهو مازال يجهل إلى أين هو راحل، هاجس زاد في اضطرابه. وراح يبحث في مواعيد إبحار السفن المعلنة هنا وهناك، حتى وجد فجأة الهدف الذي يسعى إليه ماثلاً أمام عينيه. فإلى أين يذهب امرؤ أراد الوصول خلال الليل إلى مكان نادر المثيل، مطبوع بغرابة الأساطير؟ لكن المسألة كانت واضحة. فماذا يريد هنا؟ لقد ضل سبيله وكان عليه السفر إلى هناك. ولهذا فهو لم يُضِع الوقت وأنهى إقامته الخطأ بعد أسبوع ونصف من بدايتها، حيث غادر في الصباح الضبابي الباكر تلك الجزيرة مع متاعه على قارب آلي عائداً إلى المرفأ الحربي القريب، ثم نزل إلى البر كي ينتقل فقط عبر جسر خشبي إلى سطح مبتلّ بسبب تكاثف الضباب فوق سفينة مغادرة إلى البندقية.

كانت سفينة هرمة تحمل الجنسية الإيطالية وكثيراً من الكآبة والصدأ والهباب. ودعاه، بعد أن وطئ السفينة، بحار أحدب الظهر متسخ اللباس كان مكشراً بتهذيب وقاعداً وراء طاولته وعلى رأسه قبعة تغطي أعلى جبينه وفي زاوية فمه عقب سيكارة إلى حجرةٍ كانت لها هيئة مغارة اصطناعية. استقبله رجلٌ ذا ذقن تشبه ذقن التيس، يبدو في هيئة مدير سيرك من النمط القديم، وهو يسجل أسماء المسافرين ويعطيهم بطاقات سفرهم متجهماً قليلاً، كما يفعل التجار. ووجه السؤال إلى آشنباخ للمرة الثانية وهو يرفع ذراعه ويغمس ريشته في محبرة فارغة ومائلة نحوه:

«هل أنت مسافر إلى البندقية؟»، وأضاف مجيباً بنفسه:

«نعم إلى البندقية على الدرجة الأولى. أنا في خدمتك ياسيدي».

وراح يخربش بالحبر كلمات على الورق تشبه أقدام الغربان الكبيرة وينثر من علبة بعض الرمل الناعم الأزرق فوق السطور، ثم يمررها على صحن من الفخار، ويطوي الورقة بأصابعه الصفراء العظمية ويكتب من جديد عليها:

«اختيارك مكان السفر موفق جداً»، وتابع يثرثر قائلاً:

«البندقية مدينة ذات جاذبية لا يستطيع المثقفون مقاومتها، بسبب تاريخها القديم ومفاتنها الحاضرة».

وكانت سرعة حركاته المتزلفة وما رافقها من كلام فارغ تعطي انطباعاً مذهلاً لافتاً، كما لو أنه كان يخشى أن يتردد المسافر في عزمه عن السفر إلى البندقية. لقد كان يحاسب الركاب بسرعة ويترك باقي النقود يسقط على غطاء الطاولة القذر بطريقة تلقائية قائلاً مع انحناءة تمثيلية:

«أرجو لك تسلية طيبة ياسيدي»، ويتابع:

«ويشرفني أن أسهل عملية نقلكم أيها السادة» وهو يرفع ذراعه ويمثل انهماكه في إدارة شؤون تجارة مزدهرة رغم عدم وجود أي شخص آخر يرغب في السفر.

عاد آشنباخ إلى سطح السفينة، وراح متكئاً على درابزينه يتفرج على جمع من الناس المتسكعين هنا وهناك على طول الرصيف وهم يشاهدون إقلاع السفينة، وكذلك على الركاب حوله. وقد جلس مسافرو الدرجة الثانية من

الرجال والنساء على السطح الأمامي للسفينة القرفصاء أو على صناديق وأمتعة محزومة. كان هناك عدد من الشبان والشابات قد شكلوا أولى الجماعات المسافرة على ظهر السفينة الأول، وكانوا كما بدا عليهم وكلاء لمحال تجارية من بولا. وقد جمعتهم رغبة مشتركة في القيام برحلة سياحية إلى إيطاليا للتسلية واللهو، فلم يقتصدوا في لفت الأنظار إليهم وإلى مشروعهم، بل راحوا يتصايحون ويضحكون ويستمتعون على هواهم بلعبة الإيماءات الخاصة بهم وينادون على رفاقهم السائرين على طول شارع المرفأ بمحلاته التجارية، وقد وضع كل منهم محفظته تحت إبطه وراح يلوح بعصاه مهدداً المسافرين المتنزهين من أترابه الذين انحنوا على درابزين السفينة وأطلقوا من أفواههم تعليقات ساخرة معتادة. وكان من بينهم واحد يرتدي بذلة صيفية ذات لون أصفر فاقع وطراز حديث جداً بربطة عنق حمراء وقبعة أمريكية من القش، يلفت الأسماع بصوته الذي يعبّر عن الفرحة والسرور بما يشبه نعيق الغراب. وما كاد آشنباخ يتفحص الرجل عن قرب حتى تبين له، وياللعجب، أنه كان شاباً مزيفاً. أي أنه كان كهلاً بلا شك، وقد أحاطت التجاعيد بعينيه وفمه. وظهر أن لون وجنتيه القرمزي صباغ تجميلي وشعره البني صناعي مستعار يتدلى تحت القبعة الملونة، وعنقه متهدل بارز العروق وأن شاربه الملصق خطاً موازياً فوق شفته العليا مصبوغ وكذلك الشامة على ذقنه. وقد ظهر لدى ضحكه طقم أسنانه الأصفر كامل العدد من النوع الرخيص، أما يداه

اللتان تزينت سباباتهما بخواتم معدنية فقد كشفتا بوضوح أنهما يدا رجل هرم. وراح آشنباخ ينظر بتقزز مفاجئ إليه وإلى صحبه، ويتساءل أولم يعرفوا أو يلاحظوا أنه رجل طاعن في السن ولا يحق له أن يرتدي ملابسهم الملونة المزينة وأن يلعب دور ندّ لهم ورفيق؟ وبدا أنهم يحتملونه بينهم بطريقة طبيعية وعادية ويعاملونه كواحد منهم. كانوا يردون على لكزاته الدعابية إلى صدورهم بلكزات مماثلة فكيف حدث ذلك؟ غطى آشنباخ جبينه بيده وأغمض عينيه المحرورتين بسبب قلة النوم، وأحس أن ما يجري حوله ليس أمراً معتاداً بل بداية تحريض خيالي يتشوه فيه العالم إلى حالة خاصة يتوجب عليه احتواؤها بإيقافها، ربما بأن يغطي وجهه مُعْرِضاً عنها وناظراً إلى ما حوله. لكن شعوراً بالرغبة في الطفوّ دهمه في اللحظة نفسها التي بدأت فيها السفينة، كما اكتشف بخوفٍ أبله، انفصال جسمها الضبابي الثقيل ببطء عن الرصيف الصخري. وتشكّل خلفها بالتدريج، ومع تشغيل المحرك تقدماً ورجوعاً، بركة ماء آسن متغير الألوان. وبعد مناورات بليدة اتجهت السفينة إلى عرض البحر. سار آشنباخ إلى مكان القيادة حيث قدم له البحار الأحدب كرسياً للاستلقاء وفتحه لاستقباله، ثم جاء مضيف آخر ببذلة رسمية مبقعة بالوسخ يسأله عما يأمر به.

كانت السماء رمادية والرياح رطبة وقد ابتعد المرفأ وكذلك الجزر، بحيث فقدت ساحة الرؤية الضبابية من سطح السفينة كل ما يدل على الأرض، وتناثرت صفيحات من

غبار الفحم وقد بللتها الرطوبة ثم تساقطت على ظهر السفينة الذي لم يجف بعد. ولم تمر ساعة واحدة حتى عادوا فنصبوا خيمةً بسبب عودة المطر للهطول.

وقضى المسافر، مرتدياً معطفه وممسكاً بكتاب في حضنه، فترة استراحة مضت خلالها الساعات بسرعة غير متوقعة. انقطع المطر وأزيلت الخيمة الكتابية، فظهر الأفق بكامله للعيان وانتشر تحت قبة السماء العكرة قرص البحر اللامحدود الموحش. ففي فراغ ومكان بلا ملامح كهذين يختفي من إحساسنا أي قياس للزمن ونرنو بأبصارنا إلى اللانهاية. كانت هناك شخوص فريدة من نوعها وغامضة كذلك الكهل المُغَندر وذو ذقن التيس داخل السفينة. شخوص يروحون ويجيئون وهم يومئون بتعابير وإشارات غير مفهومة وكلمات خيالية مضطربة داخل ذهن المسافر المستريح حتى غط في النوم.

استدعي ظهراً لتناول وجبة في مطعم على شكل ممر مستطيل تتوزع على جانبيه أبواب القمريات، وجلس إلى نهاية طاولة كان يقعد إلى نهايتها الأخرى وكلاء التجارة ومعهم الكهل المتصابي وهم يحتسون الخمرة مع القبطان المَرِح. كانتِ الوجبة هزيلة وانتهى منها على عجل، واندفع إلى الهواء الطلق كي يرى السماء وما إذا كانت أكثر وضوحاً وضوءاً فوق البندقية.

هو لم يتوقع غير ذلك الذي حدث بالفعل، لأن المدينة استقبلته بالبريق الذي يغمرها. لكن البحر والسماء كانا

بلون الرصاص وتساقط بينهما أحياناً رذاذٌ ضبابي. كان قد وجد نفسه وهو في البحر على الطريق مقترباً من بندقية أخرى غير المدينة التي يراها الآن على الأرض. كان يقف قبل الوصول ملاصقاً لسارية السفينة وينظر إلى البعيد مترقباً ظهور اليابسة ويتذكر شاعراً مولعاً بالسوداوية رأى القباب وأبراج الأجراس التي طالما حَلِمَ بها تتصاعد وتنشأ من الأمواج. وراح يردد بسكون بعض مقاطع غنائية تشكلت من المهابة والسعادة والحزن فجاءت مؤثرة بما تولّده مباشرة من أحاسيس. وراح يتفحص قلبه المتعب الجاد ويبحث ما إذا كان ينتظر أو يخفي حماسة جديدة أو عقدة ما وربما مغامرة متأخرة، يقوم بها هذا الرجل المسافر الكسول.

وهنا ظهر على اليمين ساحل ضحل المياه، وملأت قوارب الصيد بقعة من البحر بالحياة، وظهرت أيضاً بعض جزر السباحة التي تركتها الباخرة على يسارها ومضت ببطء متثاقلة عبر الميناء، الذي سمي باسمها، إلى بحيرة ساحلية تجمع حولها عدد من البيوت الرثة، حيث توقفت وتوجب عليها انتظار وصول قوارب الخدمة الصحية.

قد مضت ساعة قبل ظهورها. كان المرء يحس أنه وصل وهو لم يصل بعد، لم يكن مستعجلاً وقد نفد صبره في آن معاً. وصل فتيان بولا بلباسهم الوطني إلى ظهر السفينة ترافقهم نفحات بوق عسكرية قادمة من الحديقة العامة فوق الماء، وهم ما يزالون في نشوة الخمرة

ويصرخون بحياة فرقة الحرس المسلحة التي كانت تؤدي أحد تدريباتها على الجانب الآخر. لكن منظر الكهل المتصابي كان يثير الاشمئزاز لتلك الحالة التي أوصله إليها انضمامه المزيف إلى مجموعة الشبان، لأن مخه المسن لم يستطع تحمل الخمرة كما تحملها أولئك الفتيان فبدا ثملاً بشكل يدعو للحزن. راح يتمايل بنظرات تائهة مخبولة وسيكارته بين سبابتيه وهو يحاول جاهداً الحفاظ على توازنه واقفاً في مكانه، منحنياً تارةً ومتراجعاً إلى الوراء تارة أخرى، لأنه وبعد أن سقط في الخطوة الأولى ما عاد يجرؤ على السير. لكنه تصرفَ فجأةً بطيش بائس، وأخذ يمسك برأس كل من يقترب منه ويتأتئ بكلمات غير مفهومة وهو يغمز بعينيه، ويكشر ويرفع سبابته المتجعدة المملوءة بالخواتم قاصداً الإغاظة البلهاء، ويلحس برأس لسانه زاويتي فمه بطريقة مقرفه بذيئة. وقد نظر إليه آشنباخ مقطب الحاجبين وعاوده إحساس بالحيرة كما لو أن العالم يكشف له الآن ميلاً خفيفاً، ولكن يصعب تجاهله، إلى أن يصبح عالماً شاذاً مقززاً ومشوهاً. لكنه إحساس منعت الظروف استمراره، لأن محرك السفينة بدأ يعمل من جديد ويدفع جسمها كي يستأنف الرحلة، التي توقفت قليلاً قرب الهدف المنشود، عبر قناة سان ماركو.

وهكذا رأى من جديد ذلك المكان المدهش المخصص لرسو السفن. إنه مجموعة أبنية تخطف الأبصار، أنشأتها الجمهورية لاستقبال نظرات الإعجاب والإجلال التي يطلقها

المسافرون البحريون مع اقترابهم منها. تلك الفخامة المتواضعة التي اتصف بها القصر وجسر التنهدات والأعمدة المنحوتة بأسودٍ وقديسين على ضفة الميناء، وجناح المعبد الأسطوري يطل متباهياً على البحر. ومنظر المدخل والساعة الضخمة. وفكر وهو يتفرج متأملاً كيف أن الدخول إلى البندقية عبر محطة القطارات يشبه دخول قصر من بوابته الخلفية. لم يكن ينبغي الاقتراب من المدينة الأكثر غموضاً وإثارةً إلّا كما فعل هو على متن سفينة، وعن طريق البحر.

توقفت السفينة وتسابقت إليها الجندولات تتجمع أمام سلّم إنزال الركاب الذي تدلى بسرعة مع صعود موظفي الجمرك إلى ظهر السفينة وممارستهم وظيفتهم المعتادة وأمكن بدء الترجّل. أشار آشنباخ إلى أحد القوارب طالباً نقله مع متاعه إلى محطة قوارب النزهة التي تنتقل بين المدينة والليدو الذي يحجز مياه المرفأ. فقد أراد الإقامة في شقة على البحر. وتمت تلبية رغبته بعد نقلها بمناداة سائقي القوارب الذين كانوا يتشاجرون في الأسفل بلهجاتهم العامية. لكنه لم يستطع النزول وأعاقته حقيبة سفره التي يتم الآن إنزالها وحدها على سلم آخر. ووجد نفسه لدقائق مشغولاً بالهروب من سلاطة لسان الكهل المقرف الذي دفعته ثمالته إلى أداء واجبه في وداع الغريب. فقال وهو يحك قدمه بالأرض:

«نرجو لكم إقامة سعيدة»... وتابع:

«نودعكم ونأمل أن تبقى لنا الذكرى... إلى اللقاء والمعذرة وطاب يومك يا سيدي».

وكان فمه قد تبلل وأغمض عينيه ولحس طرفي فمه بلسانه. وانثنت الشامة المصبوغة فوق شفته الكهلة إلى الأعلى، وتابع هامساً وقد وضع رأسي إصبعيه على فمه:

«تحياتنا للصديق... للصديق الأجمل...»، وفجأة سقط الفك الأسفل من طقم أسنانه الصناعي فوق شفته السفلي. وهنا استطاع آشنباخ الفرار. وسمعه يتابع وراء ظهره بأصوات معاقة جوفاء تشبه الفحيح... «للصديق... للصديق النبيل...»، ثم هبط السلم المتدلي إلى الأسفل مستنداً إلى سياج حبل غليظ.

من منا لا يواجه الرهبة والارتياب والانقباض إذا هو صعد للمرة الأولى أو بعد انقطاع طويل إلى سطح أحد القوارب الجندولية البندقانية؟ إنها وسائل نقل نادرة تعود إلى عصر الأوبرا الكلاسيكية، ولم يتبدل فيها شيء على الإطلاق بل ظلت متميزة بأقمشتها السوداء التي تشبه الأكفان، وتعيد إلى الذاكرة مغامرات إجرامية صامتة في ليل مبتلّ، بل إنها تذكر بالموت نفسه، بالمحفّات والجنازات الكئيبة الحزينة والسفرة النهائية الصامتة. فهل لاحظ المرء أن المقعد في محفة كهذه مدهون بالأسود اللامع، لون الكفن، بوسادتين مخمليتين بلون أسود باهت، وأنه أكثر المقاعد في العالم راحة وطراوة وفخامة؟ وأدرك آشنباخ ذلك كله عندما جلس إزاء قدمي سائق الجندول في

مواجهة متاعه الذي وُضع بترتيب ملاصقاً لمقدمة القارب التي تشبه منقار الطائر. كان المجذفون يتابعون شجارهم بخشونة وبكلمات غير مفهومة وإشارات تهديد. لكن تلك السكينة النادرة التي تتصف بها المدينة المائية استطاعت كما يبدو أن تحتوي أصواتهم وأن تمتصها ثم تنثرها وراء الأمواج المتلاطمة. كان الجو دافئاً هنا في الميناء ومتأثراً بنفحات ريح الجنوب الرطبة. أغمض المسافر عينيه مسترخياً على المقعد المريح وتمتع بكسل حلو غير معتاد. وفكر بأن الرحلة قصيرة وودّ لو أنها تدوم إلى الأبد. وأحس متردداً قليلاً بضرورة التحرر أخيراً من صخب الأصوات حوله.

عاد الهدوء إليه وإلى ما حوله باستثناء ضربات المجاذيف وصفعات الأمواج على المنقار الأسود الصاعد بحدة عن مستوى الماء والمنتهي برأس يشبه بلطة حربية، وكذلك أصوات أحاديث وثرثرات وهمسات المجذفين الخارجة كلها من بين أسنانهم متقطعة ومضغوطة بسبب ما تبذله سواعدهم من جهد في التجذيف. نظر آشنباخ حوله واستغرب قليلاً أن بركة الماء توسعت وأن رحلته البحرية هذه تتجه نحو البحر المفتوح. وبدا أنه لن يستطيع الخلود إلى الراحة قريباً، بل عليه أن يستعد للصبر قليلاً بكامل إرادته. وقال وهو يستدير قليلاً إلى الوراء:

«إذن إلى مرسى القوارب...»، وخرس الهمس وكذلك أي جواب. وكرر طلبه:

«إلى مرسى القوارب إذن!»، وقد استدار تماماً وراح يحدق في وجه سائق الجندول الواقف خلفه على مصطبة مرتفعة قليلاً والبارز بجسده على خلفية السماء الشاحبة. كان رجلاً ذا سحنة فظة بل حتى متوحشة، مرتدياً لباس البحارة الأزرق بزنار أصفر وطاقية من القش بلا شكل وضعها على رأسه متفاخراً بها رغم بدايات تشققها. وقد دلّ شكل وجهه وشاربه الأشقر المجعّد تحت أنفه القصير بوضوح على أنه ليس إيطالياً على الإطلاق. كان نحيل البنية بحيث يعتقد الناظر إليه أن هذه المهنة لاتناسبه تماماً. كان يحرك المجذاف بكامل جسده مع كل ضربة على الماء وبجهد كبير، ومرة كشّر لفرط التعب عن أسنانه البيضاء ونظر من علٍ إلى المسافر معه مقطباً حاجبيه الأصهبين، وأجابه بلهجة صارمة جافة تقريباً:

«أنت ذاهب إلى الليدو».

فأجاب آشنباخ: «صحيح. لكنني استأجرت الجندول كي ينقلني إلى سان ماركو ومنها أريد استخدام القارب البخاري».

«لكنك لا تستطيع استخدام القارب البخاري ياسيدي».

«لماذا؟».

«لأنه لا ينقل المتاع».

تذكر آشنباخ أن هذا الكلام صحيح فصمت. لكن

تصرف الرجل بهذه الطريقة الوقحة الفوقية وغير المعتادة في بلد كهذا أثار حفيظة الشاعر، فقال:

«هذه معلومة صحيحة. ولكني ربما أردت إيداع متاعي في المحطة فهلا عدت بي إليها؟».

خيم الصمت، وتابعت المجاذيف صفع ماء البحر، واستأنف سائق الجندول حديثه مع نفسه من بين أسنانه.

ماذا كان ينبغي على المسافر عمله؟ إنه وحيد فوق الأمواج الهائجة مع شخص شرس غامض وعنيد لم يجد أية وسيلة ليفرض فيها إرادته عليه. كان سينعم بطعم الراحة اللذيذ لو أنه لم يغضب! ألم يكن يتمنى أن تدوم هذه الرحلة البحرية طويلاً؟ إلى الأبد؟ وكان من الأكثر ذكاء وتعقلاً ترك الأمور تجري على عواهنها. كانت مقبولة جداً في مسيرتها الرئيسية. وبدا أن سحابة وهن وخمول تتصاعد إليه من مقعده الواطئ المنجّد بالأسود المهتز بنعومة من ضربات المجاذيف التي يقوم بها سائق الجندول المستبد وراء ظهره. داعبت مخيلة آشنباخ صورة وقوعه في قبضة مجرم من غير أن تملك أفكاره القدرة على الدفاع عن نفسه بالفعل. وبدت أكثر عجزاً إمكانية أن الأمور كلها تستند ببساطة إلى ابتزاز المال. ودفعه نوع من الشعور بالواجب والكرامة قادم من الذاكرة إلى محاولة اتقاء ابتزاز كهذا فجمع قواه وسأل:

«كم تريد أجراً للرحلة؟».

فأجابه سائق الجندول وهو ينظر إليه من فوق رأسه:

«سوف تدفع».

كان الرد واضحاً فأجاب آشنباخ تلقائياً:

«لن أدفع شيئاً أبداً. طالما أنك تأخذني إلى مكان لاأريد الذهاب إليه».

«أنت تريد الذهاب إلى الليدو».

«ولكن ليس معك».

«أنا أقودك بشكل جيد»..

وفكر آشنباخ «هذا صحيح»، واسترخى قليلاً. «نعم. هذا حقيقي... أنت تقودني بشكل جيد ولو أنك تستهدف نقودي وترسلني بضربة من مجذافك إلى الجحيم تكون قد قدتني بشكل جيد».

لكن شيئاً من هذا لم يحدث بل جاءت تسلية على قارب قادم قوامها رجال ونساء يعزفون الغيتار والماندولين وهم يغنون وقد التصق قاربهم تقريباً بالجندول وملؤوا سكون المياه بأزجالهم الارتزاقية الجشعة. ألقى آشنباخ ببعض النقود إلى قبعة ممدودة إليه، فصمتوا جميعاً وابتعدوا. وسُمعت من جديد همسات سائق الجندول يحدث نفسه بكلمات متقطعة مبتورة.

وصل الجندول حاملاً المسافر متأرجحاً على مياه يشقّها زورق بخاري متجه إلى المدينة، وكان على الشاطئ

موظفان رسميان يروحان ويجيئان وأيديهما خلف ظهريهما وهما ينظران إلى بركة الماء. غادر آشنباخ الجندول إلى الرصيف يساعده رجل كهل تراه في كل مكان لرسوّ القوارب في البندقية حاملاً منجل العتالة وجاهزاً لها. وبما أن الشاعر لم يكن يملك نقوداً صغيرة فقد قصد الفندق المجاور للجسر كي يحصل عليها من خدمة الصرافة ليدفع أجرة سائق الجِندول التي يستحقها دون شروط. لقي في الصالة الخدمة المصرفية وعاد ليجد متاعه داخل عربة على الرصيف، وليكتشف اختفاء الجندول وسائقه دون أثر. فقال العتال الكهل ذو المنجل: «لقد ابتعد مسرعاً... إنه رجل سيئ. رجل بلا رخصة عمل ياسيدي المحترم. كما أنه سائق الجندول الوحيد الذي لا يحمل ترخيصاً، وقد أبلغ عنه الآخرون بالهاتف وعَلِمَ أنه مطلوب فلاذ بالفرار». هز آشنباخ كتفيه فتابع الكهل:

«السيد سافر إذن مجاناً». وخلع قبعته ومدها نحوه فرمى فيها آشنباخ قطعة نقود، وأعطى تعليماته بنقل المتاع إلى فندق الحمّامات، وسار وراء العربة في الشارع العريض الأبيض المزدان بالورود الذي يؤدي إلى شاطئ البحر عبر الجزيرة وقد اصطفت على جانبيه حانات ودكاكين ونُزُل.

دخل إلى الفندق الرحب من بابه الخلفي عَبْرَ شرفة الحديقة والصالة الكبيرة والردهة حتى وصل المكتب. وبما أنه حجز لنفسه مسبقاً فقد استُقبل بحفاوة. وقام مدير

الفندق، وهو رجل قصير القامة هادئ ومهذب حتى النفاق، ذو شاربين سوداوين ويرتدي سترة طويلة فرنسية الطراز، بمرافقته في المصعد حتى الطابق الثاني ودله على غرفته في دهليز مفروش بخشب الكرز ومزين بأحواض ورود قوية الرائحة، وقد أطلت نوافذه العليا مباشرة على البحر المفتوح. دخل إحدى تلك الغرف بعد أن انسحب الموظف وحمل بعض المستخدمين متاعه إلى داخلها، وراح ينظر عبر النافذة إلى الشاطئ الذي لا يؤمه بعد الظهر سوى القليل من الناس، وإلى البحر المظلم الذي كان في حالة اضطراب ويرسل أمواجه المنخفضة الطويلة إلى اشاطئ فيحدث ارتطامها إيقاعاً رتيباً متوالياً.

بما أن الملاحظات والأحداث التي يعيشها الرجل الوحيد الصامت تفوق مثيلاتها لدى أي شخص آخر ضمن جماعة، فقد كانت أفكار المسافر أكثر وقاراً ودهشة ولم تخلُ من سحابة حزن. فالصور والانطباعات التي تنمحي في مخيلته عادةً بنظرة أو ضحكة أو تعليق، صارت الآن تشغله تفكيراً بماهيتها وتتعمق في تأملاته وتصبح أمراً هاماً وحدثاً أو مغامرة أو إحساساً ما. إن التأمل وحيداً يُنضج الصورة الأصلية الجريئة والغرائبية في جمالها، وهي القصيدة، كما أن الوحدة تنضج أيضاً تلك الصورة السخيفة، غير المنسجمة أو المجردة والمحرمة. وهكذا سببت مشاهدات رحلة الذهاب، ومنها ذلك الكهل المتملق المزعج بثرثرته عن المحبوب، وسائق الجندول غير

المرخص له والغشاش في أجره، مزيداً من الاضطراب في مزاج المسافر. فقد بدت له ظواهر نادرة تماماً من حيث طبيعتها، ومن غير أن تتعب العقل أو تشكل مادة للتفكير والبحث. هذا التناقض ذاته سبب له الاضطراب، فوجه أثناء ذلك تحية للبحر بعينيه، وأحس بالفرح لعلمه أن البندقية صارت على مقربة منه سهلة الوصول. استدار أخيراً كي يغسل وجهه ثم يُصدر إلى فتاة خدمة الغرف بعض التعليمات لاستكمال راحته. وترك عامل المصعد السويسري ذا اللباس الأخضر يقوده إلى الطابق الأرضي.

تناول الشاي على الشرفة المطلة على البحر، ونزل يتمشى على الكورنيش باتجاه فندق إكسلسيور. ولما عاد وجد أن الوقت قد حان لتناول وجبة العشاء، فبدل ثيابه ببطء ودقة كعادته، إذ كان يهتم دائماً بمظهره. ووجد نفسه مع ذلك حائراً قليلاً في الصالة، حيث رأى عدداً من زبائن الفندق الغرباء وقد تجمعوا متظاهرين بعدم اهتمام بعضهم بالبعض الآخر، وقد لمّ شملهم انتظار الطعام. تناول صحيفة من على الطاولة وقعد على أريكة جلدية يتأمل الناس حوله الذين اختلفوا بطريقة مقبولة لديه عن أولئك الذين صادفهم في بداية قدومه.

كان ثمة أفق آخر أكثر شمولاً وأحوج إلى الصبر، وقد صدرت عنه أصوات مختلطة مكبوتة من مختلف لغات الأرض الرئيسية. وظهر لباس المساء الأسود العالمي، بذلةً رسميةً راقية، جمعت تباينات البشرية جمعاء في وحدة

مخملية مهذبة. كان الناظر يرى سحنة الأميركي الجافة المستطيلة، والأسرة الروسية كثيرة الأفراد والسيدات الإنكليزيات والأطفال الألمان مع مربيات فرنسيات. كان العنصر السلافي يبدو مسيطراً، وسمعهم بالقرب منه مباشرة يتحدثون اللغة البولونية.

كانوا مجموعة من الفتية تَخَطّو لتوهم سنَّ الطفولة ترعاهم مربية أو مرشدة اجتماعية جالسين إلى طاولة معدنية: ثلاث بنات بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من أعمارهن، كما بدا، وصبي طويل الشعر ربما كان في الرابعة عشرة. راح آشنباخ يحدق فيه مدهوشاً بجماله الكامل. كان ذا طلعة بهية شاحبة يحيط بها شعر بلون العسل وله أنف مستقيم في انحداره وفم فاتن. وقد حمل الوجه بكاملة تعبيراً ودوداً جاداً كوجه الآلهة، يُذكّر بتماثيل الإغريق من العصور العريقة في نبلها. كان الصبي بالإضافة إلى اكتمال جماله في الشكل يملك سحراً شخصياً فريداً من نوعه، بحيث اعتقد الناظر أنه لم يسعد قبل الآن بلقاء ما يشبهه سواء في الطبيعة أو في الفن التشكيلي. وقد كان ما لفت النظر هو التباين المبدئي بين لباس وتصرفات الفتيات من وجهة النظر التربوية. كانت الفتيات الثلاث، وكبراهن تقارب سن البلوغ، يرتدين ثياباً كالحة في حشمتها حتى البشاعة، تشبه أردية الأديرة المتناظرة بألوانها القرميدية ومقاساتها الطويلة وفراغها وعدم تلاؤمها مع الأجسام وبياقاتها البيضاء الوحيدة

المضيئة. وذلك ما أجهض ومنع في مظهرهن أي استحسان أو مسرّة. لقد جعل الشعر الملتصق تقريباً بفروة الرأس وجوههن كوجوه الراهبات فبدت خالية من الأنوثة وغير معبرة عن أي شيء. وكانت الأم بالطبع هي التي تدير شؤونهن ولم تفكر في استخدام الصرامة التربوية إلا على البنات، وليس على الصبي الذي ظهرت عليه علائم الطراوة والنعومة بوضوح. كان ثمة حذر في قص شعره الجميل الذي تلولب على جبينه وغطى أذنيه ووصل إلى نقرته. وكانت بذلة البحارة الانكليزية التي تنتفخ أكمامها على ذراعيه، وتضيق عندما تحيط تماماً بالمعصمين الناعمين ليديه الطفوليتين النحيلتين، وبما تزينت به من شرائط وغرزات ملونة، قد منحته منظر أبناء الأثرياء المدللين. كان قاعداً في وضع نصف جانبي مقابل الناظر إليه، وقد وضع قدماً بحذاء دقيق أسود أمام القدم الأخرى، واتكأ بكوعه إلى حافة المقعد المصنوع من الخيزران مريحاً خده على قبضة يده في حالة استرخاء بعيدة جداً عن حالة التأهب والتأدب التي تعودت عليها أخواته البنات. فهل كان يعاني من مشكلة صحية، لأن بشرة وجهه برزت بلون أبيض عاجي يتباين مع خصلات شعره الذهبية الداكنة، أم أنه كان ببساطة ابن العائلة المفضل المدلل والمغمور بالحب المتحيز المزاجي؟ ومال آشنباخ إلى الأخذ بالاحتمال الأخير. إذ يولد مع كل فنان بالغريزة جنوح طبيعي للفخامة والترف لا يستطيع الاختباء أو إنكارِ ماتحتويه اللامساواة من جمال والأرستقراطية من مزايا فيعاملها بودٍ وإعجاب.

تجول نادل في الصالة معلناً بالإنكليزية جاهزية وجبة الطعام وبدأ الناس يتفرقون خارجين عبر الباب الزجاجي إلى المطعم، ولحق بهم بعض المتأخرين القادمين من القاعة الكبيرة أو من المصاعد. وبدأ تقديم الوجبة في الداخل، لكن الأسرة البولونية بقيت في مكانها إلى الطاولة المعدنية وبقي آشنباخ أيضاً على مقعده المريح يتأمل الفتى الجميل الذي بقي مع الأسرة في الانتظار حتى أعطت المربية، وهي سيدة قصيرة القامة وبدينة ذات وجه أحمر، إشارة الوقوف. ودفعت، وهي ترفع حاجبها، كرسيها إلى الوراء ثم انحنت عندما رأت سيدة طويلة، بثياب رمادية وبيضاء ولآلئ تزينها وتدل على الثراء البالغ، تدخل الصالة وقد اتسمت هيئتها بالبرود والرصانة، ما أعطى بالإضافة إلى شعرها المنقّط قليلاً بالأبيض وطراز ثوبها البسيط انطباعاً بأنها تنتمي إلى ذوق تُعتَبر فيه التقوى الدينية جزءاً من الرِفعة والنبالة. كان يمكن أن تكون زوجة أحد كبار الموظفين الألمان، لولا أن رفاهية خيالية غمرتها وانطلقت فقط من حليّها التي لا تقدر بثمن وتتكون من قرطين وطوق طويل بحبات لؤلؤ خفيفة التألق في حجم حبات الكرز.

كان الأولاد قد نهضوا بسرعة لتقبيل يد أمهم التي قابلتهم بابتسامة متحفظة صدرت عن وجهها المنمق المتعب قليلاً بأنفه الحاد وهي ترمي بنظراتها من فوق رؤوسهم، وتتمتم بالفرنسية بضع كلمات توجهها إلى

المربية. ثم خطت إلى الباب الزجاجي وتبعها البنات حسب ترتيب أعمارهن وسارت المربية خلفهن ثم الفتى في المؤخرة، الذي ما لبث أن التفت لسبب ما إلى الخلف قبل أن يجتاز العتبة ولم يكن في الصالة أحد، فواجهت عيناه المضيئتان بلون الشفق الرمادي عيني آشنباخ الذي مازال ممسكاً بالجريدة على ركبتيه وهو يشيّع الأسرة المغادرة متأملاً بنظراته.

كان ما رآه عادياً جداً لا يلفت الأنظار. إنهم لم يذهبوا إلى طاولة الطعام قبل الأم بل انتظروا قدومها وأدوا واجب تحيتها، وراعوا السير خلفها والدخول بانتظام وفق التقاليد. لكن هذا كله ولّد في إحساس آشنباخ تعبيراً فريداً عن التربية والالتزام واحترام الذات. وتردد لحظاتٍ تحركَ بعدها لدخول المطعم حيث أشير له بالقعود إلى طاولة صغيرة، اكتشفَ بأسفٍ عابر أنها بعيدة جداً عن طاولة الأسرة البولونية، فأشغل نفسه أثناء وجبة الطعام المملة الطويلة بالتفكير في أشياء تجريدية وميتافيزيقية، واستحضر إلى ذهنه تلك العلاقة الغامضة المملوءة بالأسرار التي يجب أن تربط بين شرعية القوانين والخصوصية الفردية، كي ينشأ ويتطور منهما جمال إنساني حقيقي. وانتقل من ذلك إلى مسائل الشكل والفن ووجد أخيراً أن أفكاره واستنتاجاته تماثل، كما بدا له، إيحاءات حلم سعيد، ثبت بعد اليقظة أنها غثة فارغة. وظل بعد تناول الطعام يدخن ويقعد ويتمشى في الحديقة التي

غمرها المساء. ولجأ باكراً إلى الراحة وقضى ليلته في نوم عميق لم تعترضه سوى الأحلام المنعشة.

لم يكن الطقس في اليوم التالي أجمل، فقد هبت ريح محلية وتمدد البحر تحت سماء مغطاة بغيوم باهتة، في سكون مثلوم وأفق قريب واضح للعيان وقد ابتعد الماء عن الشاطئ بحيث أن عدداً من الأرصفة الرملية الطويلة ظلت فارغة جافة. وعندما فتح آشنباخ نافذته ظن أنه يشمّ رائحة عفنة قادمة من البحيرات الساحلية هناك.

تعكر مزاجه وفكر هذه اللحظة بالسفر. مرة قبل سنوات، دهمه طقس رديء بعد عدة أسابيع من الصحو الربيعي، سبّب لصحته ضرراً كبيراً، دفعه إلى مغادرة البندقية هارباً على عجلٍ واضطرار. فهل حلّت به الآن نوبة كراهية مشابهة رافقها ضغط في صدغيه وثقل في أجفان عينيه؟ لكن تغيير مكان الإقامة مرة ثانية سيكون مرهقاً. حبذا لو غيرت الريح اتجاهها كي يبقى هنا. وهو على سبيل الحيطة لم يفك ويرتب متاعه كاملاً. تناول في التاسعة صباحاً طعام الفطور في المكان المخصص بين الصالة والمطعم.

غمرت المكان سكينة احتفالية هي من علامات الفنادق الكبرى. وتجول النُدُل للخدمة بخطوات خافتة ولم يكن مسموعاً غير قعقعة إباريق الشاي وبعض الهمسات. ولاحظ آشنباخ القاعد في زاوية مقابلة للباب بخطٍ مائل وجود الفتيات البولونيات مع مربيتهن بقامات منتصبة تماماً، كما

لاحظ على شعورهن ذات اللون الأشقر الكامل تسريحة جديدة واحمرار عيونهن وقد ارتدين ثياباً من الكتان الأزرق المنشّى بياقات صغيرة بيضاء وأزرار في القمصان، وكن قاعدات يتناولن بالتتالي بعض المربى في ختام الإفطار، ولم يكن الفتى معهن.

ابتسم آشنباخ مفكراً: «أين أنت أيها المدلل الصغير! يبدو أنك تتمتع بحق أفضليتك في النوم حسب رغبتك». وفجأة أحس بمرح وراح يردد متمتماً مقاطع من أغنية تقول: «الزينة تتبدل باستمرار وكذلك الحمام الساخن والراحة...». تابع فطوره بلا استعجال وتسلم من عامل الاستقبال الذي دخل المكان بقبعته المقصّبة، بعض الرسائل الواردة إليه، وفتح وهو يدخن عدداً منه وقرأه حتى شاهد دخول الفتى المتأخر في النوم إلى منتظريه عبرَ الباب الزجاجي. اخترق سَكِينة المكان بخط مائلٍ إلى طاولة أخواته واتصفت إطلالته، سواء في استقامة جذعه أو حركة ركبته أو نقلة قدمه ذات الحذاء الأبيض، بسحر غير عادي وحلاوة نادرة. كان في مشيته خفّة ورشاقة ورقّة واعتزاز، يزيد في جمالها حياء طفولي، تجلّى أثناء سيره عبر التفاتة برأسه فتح معها عينيه ثم أغمضهما. قعد في مكانه باسماً بكلمات ناعمة متدفقة أقرب إلى الهمس، وصادف جلوسه أن ظهرت معه صورة جانبية تماماً لرأسه، ما أدهش المتابع آشنباخ من جديد وجعله يحس بالرهبة أمام الجمال الإلهي حقاً لهذا الإنسان.

كان الفتى يرتدي اليوم بذلة «سفاري» خفيفة من قماش قابل للغسيل مخطط بالأزرق والأبيض وعلى صدرها غرزه ملصقة دائرية من الحرير الأحمر، وفي أعلاها ياقة بيضاء بسيطة تحيط بالعنق. ولكن في وسط هذه الياقة، التي لم تكن تنسجم في الواقع مع البذلة في مظهرها، ارتكزت زهرة فاتنة لا مثيل لسحرها هي رأس «إيروس»(*) المنحوت من المرمر النقي المائل إلى الاصفرار بحاجب رقيق في حزم، وصدغٍ وأذن تغطيها ذؤابات داكنة ناعمة من الشعر متدلية من الزاوية اليمنى للصورة الجانبية الرائعة.

وفكر آشنباخ مستحسناً ما يراه ببرود النقاد المختصين، الذي يخفي وراءه الفنانون أحياناً دهشتهم البالغة وإعجابهم الشديد بعمل فني متميّز. وقال في نفسه:

«لا بأس جيد». وفكر أيضاً:

«يبدو أن ما كان ينتظرني هنا في الواقع ليس البحر والشاطئ... سأبقى هنا ما بقيت أيها الفتى». ومضى بعد ذلك مثيراً انتباه العاملين في الفندق يعبر الصالة ثم يدخل الشرفة الكبيرة ومنها علي جسر خشبي إلى الشاطئ المخصص لزبائن الفندق. التقى هناك بالكهل نفسه حافي القدمين ومرتدياً صدارة بحارة وبنطالاً من الكتان الخشن وقد غطى رأسه بقبعة من القش ووقف بصفته مشرفاً على

(*) إيروس: إله الحب الإغريقي القديم. م.

المسبح، فطلب منه أن يدله على حجرة الملابس المستأجرة وأن يضعوا له طاولة وكرسياً مريحاً على المنصة الرملية. وقعد هناك مسترخياً بعد أن سحب كرسيه باتجاه البحر على الرمل الأصفر بلون الشمع.

أدخل مشهد الشاطئ وهذه الإطلالة الحضارية الممتعة إلى حواسه فرحة وتسلية. كان البحر المنبسط بلونه الباهت قد انتعش بالأطفال السابحين والغاطسين فيه بأشكالهم الملونة، وبأولئك الذين صالبوا أذرعهم تحت رؤوسهم واستلقوا على المدرجات الرملية. ثمة آخرون مارسوا التجذيف في حسكات مدهونة بالأحمر والأزرق ينقلبون معها ضاحكين. وأمام الصف الممتد على طول المدرّجات والشرفات الصغيرة ظهرت حركة بعض اللاعبين بين سكون المستلقين بلا حراك، كما شوهدت لقاءات وأحاديث وأناقة صباحية حذرة إلى جانب جرأة التعرّي استغلالاً للحريات المريحة التي يسمح بها المكان.

وهناك على الرمال المبتلة المتصلبة تمشّى البعض بالبرانس البيضاء أو بقمصان واسعة فاقعة الألوان. وبنى أطفال برجاً من الرمل متعدد الطوابق جهة اليمين غرسوا فيه بيارق صغيرة بألوان البلدان كلها. كما جلس باعة الأصداف الحلزونية والحلويات والفاكهة القرفصاء يهيئون بضائعهم للعرض والبيع، وعلى اليسار، أمام أحد الأكواخ التي امتدت عرضاً وشكلت نهاية الشاطئ المحاذي للبحر من هذه الجهة، نصبت عائلة روسية لنفسها خيمة.

كانت تتألف من رجال ملتحين ذوي أسنان صلبة ونساء هيفاوات خاملات وفتاة بلطيقية تقعد أمام حامل لوحة للرسم محاولة نقل صورة البحر وهي تطلق زفرات اليأس باستمرار. كذلك ضمت الأسرة أيضاً طفلين أنيسين قبيحين وخادمة عجوزاً تضع منديلاً على رأسها تتصرف بخنوع واستسلام كالعبيد. كانت هذه العائلة تنعم بالإقامة هنا وتنادي دون كلل أو ملل بإسمي الطفلين اللاهيين غير المطيعين. وتنشغل بالمزاح طويلاً بكلمات إيطالية قليلة مع الكهل الذي تشتري من عنده بعض الحلوى. وتتبادل القبلات على الوجنات ولا تعير أي اهتمام لمن يراقبها من حولها.

ظل آشنباخ يفكر لنفسه: «إذن أريد البقاء هنا... وأي مكان أفضل؟»، وأطبق يديه في حضنه وترك عينيه تضيعان في مدى البحر البعيد ونظراته تتهرب وتتحد وتنكسر داخل غبار المكان الرتيب. كان يحب البحر لأسباب عميقة، منها الحاجة إلى الهدوء التي يحسها كل فنان يعمل بجد وإرهاق ويرغب في أن يحمي نفسه على صدر البساطة المفرطة من تعقيدات مظاهر الحياة المترفة ومتطلباتها. ومنها الانطلاق المحرّم والمتناقض ظاهراً مع رسالة الفن، والمؤدي بالتالي إلى اللاعضوية واللاقياسية واللاديمومة والعدم. إن الاستراحة في حضرة الكامل العظيم هي ما يصبو إليه كل من يسعى إلى إبداع المتميز الرائع، أوليس العدم شكلاً من أشكال الديمومة؟ وبينما كان يحلم هكذا في الفراغ متعمقاً فيه، تجاوز طرف الشاطئ فجأة شكل بشري،

وآنَ استعاد نظراته من اللانهاية وركزها ظَهَرَ له الفتى الجميل قادماً من اليسار.

سار أمامه على الرمل حافي القدمين مستعداً للمشي في الماء بالكشف عن ساقيه النحيلتين حتى ركبتيه. كان يمشي ببطء ولكن بخفة وزهو وبدا أنه معتاد على السير هكذا بلا حذاء والتحرك كما يشاء. وراح يتفرج حوله على الأكواخ المرصوفة عرضاً، لكنه لاحظ وجود الأسرة الروسية التي كانت تمارس حياتها الزوجية الأنيسة بانسجام. فغطت وجهه عاصفة من الغضب والاحتقار وأظلم جبينه وارتفع فمه إلى الأعلى وخرج من شفتيه زفيرُ غيظٍ شديد كاد يمزق وجنتيه وقطّب حاجبيه بكثافة، بدت عيناه تحت ضغطهما غائرتين وهما تعبّران بشرر يتطاير منهما ينمُّ عن الازدراء والكراهية. ثم حوّل نظره إلى الأرض، وعاد مرة أخرى فرفعه بالتهديد وأشار بكتفيه إشارة اللامبالاة والسخرية، واستدار تاركاً العدو وراءه.

استدار آشنباخ عن المشهد وقد غمره نوع من الإحساس الرقيق أو ربما من الفزع الممزوج بالاحترام والخجل، وبدا وكأنه يتجاهل ما رآه، لأن من يلتقي بالمصادفة انفعالاً كهذا يحاول مقاومة استيعابه أو استهلاكه لنفسه، لكنه أحس بالنشاط والارتعاش معاً فبدا أنه أحس بالفرح. هذا الانفعال الطفولي الموجه ضد مظهر أليف جداً من مظاهر الحياة، أدخل أمراً إلهياً تافهاً في علاقات إنسانية. وترك رائعة ثمينة من روائع الطبيعة التي

تُمتّع الأبصار تتحول إلى مصدر مشاركة أكثر عمقاً من مجرد النظر، قد اكتسب وجه الفتى الملفت النظر بجماله وهو مُنفعل، هالة شفافة سمحت بأن يُعامَل بجدية لا تتناسب مع سنوات صِباه.

استدار آشنباخ ليصغي إلى صوت الفتى، ذلك الصوت الناعم الضعيف قليلاً الذي حيّا به عن بُعد أنداده المنشغلين في بناء برج من الرمل ومعلناً انضمامه إليهم. وجاء الرد على تحيته بنداءات عديدة ذُكر فيها اسمه الأول بشكل من التودد والدلال والترحيب. وتابع آشنباخ الإصغاء بفضول خاص من غير أن يستطيع التقاط جملة واضحة عدا مقطعين موسيقيين مثل «آدغيو» وعدة مرات أيضاً «آد غي أو» مع مدّ الحرف الصوتي «أو» في النهاية. سرّته نغمة الاسم ورخامتها ووجدها ملائمة للموضوع وراح يكررها لنفسه، ثم انصرف راضياً إلى رسائله وأوراقه.

وضع حقيبة سفر صغيرة على ركبتيه وبدأ يكتب بالريشة والحبر بعض المراسلات. لكنه وجد بعد ربع ساعة أن من الخسارة العزوف عن الحالة التي يعيشها وهي تستحق الاستمتاع أكثر من أية حالة سبقتها، على الانهماك في مجهود ذهني تافه. فرمى أداة الكتابة جانباً وعاد باتجاه البحر مسافة قصيرة. قعد على كرسي مستديراً نحو أصوات الفتية حول برج الرمل، وأسند رأسه مستريحاً إلى أعلى ظهر الكرسي، وراح يبحث بعينيه عن مكان ونشاط الفتى الرائع اللذيذ «آدغيو».

وجده من النظرة الأولى. فقد برزت الدائرة الحمراء المغروزة على صدره بوضوح لافت. كان منشغلاً مع الآخرين في تثبيت لوح خشبي قديم. بدا بمثابة جسر على خندق مائي حول البرج الرملي، وهو يعطي تعليماته صائحاً ومشيراً برأسه إلى نحو عشرة من أقرانه الصبيان والبنات وبعضهم الأصغر سناً منه، وهم يتحدثون معاً بالبولونية والفرنسية وكذلك باللغة البلقانية بلفظٍ غير مفهوم. لكن اسمه تردد عالياً مرات عديدة وبدا أنه محبوب وأنه يُعامل بالتكريم والإعجاب. وكان هناك فتى بولوني مثله قوي البنية ينادونه باسم يشبه «ياشو» ذو شعر أسود ملمّع بالزيت وبذلة مزنّرة، يبدو أنه الأقرب إليه صداقةً وولاءً. ذلك لأن الفتية تفرقوا بعد بناء برج الرمل على طول الشاطئ وقام هذا الذي نودي باسم «ياشو» بطبع قبلة على خد الجميل.

أحس آشنباخ بدافع إلى تحذيره بسبابته وهو يفكر باسماً: «أنصحك يا كريتوبولس أن تسافر سنة بعيداً لأنك سوف تحتاج إلى هذا الحد الأدنى من الاستشفاء». بعد ذلك تناولَ حبات كبيرة ناضجة من الفريز اشتراها من أحد الباعة. وأصبح الطقس حاراً رغم عجز أشعة الشمس عن اختراق طبقة البخار التي غطت السماء. وأدى الخمول إلى تقييد الروح وجعل الحواس تسترخي مستمتعة بصمت البحر الآسر ورهبته العظيمة. بدا للرجل الجاد أن البحث عن اسم يشبه في إيقاعه كلمة «آدغيو»: مهمة جديرة بشغل

تفكيره. وثَبتُ له بمساعدة بعض ذكرياته البولونية أن أصل الكلمة هو «تادسيو» وهو اختصار لكلمة «تادي أوس».

نزل «تادسيو» إلى البحر أما آشنباخ فبعد أن غاب الفتى عن عينيه، اكتشف منه رأسه وذراعه وهو يجذف بسرعة بعيداً داخل البحر الذي ظل مسطحاً حتى هناك. ومع هذا بدأ القلق على حياة الفتى وعلت أصوات نسائية صادرة من الأكواخ تناديه باسمه الذي انتشر على امتداد الشاطئ كشعار ورمز، واكتسب، بفضل إيقاع مقطعيه الصوتيين الرقيقين وحرف الـ «أو» الممدود في آخره، نغمة جميلة ذات صدى بدائي... «تادسيو»! «تادسيو». عاد إلى الشاطئ ومشى ضارباً بساقيه في عكس اتجاه الماء مكوناً رغوة تعلو وتسقط، وراح يمد رأسه من فوق الموج. أن نرى ذلك التمثال الحي برجولته المبكرة وبالنبل والصرامة في وجهه، وهو يقترب قادماً من أعماق البحر والسماء مثل إله فتيّ نجا بروحه من بدء الخليقة، فذلك يوحي بتصورات أسطورية، تشبه الشعر الذي نشأ في العصور الأولى، وفي بدايات الجمال وزمن ولادة الآلهة. أصغى آشنباخ بعينين مغمضتين إلى لحنٍ ملحمي يترنم في داخله، وفكر من جديد بأن المكان هنا جيد وأنه يريد أن يبقى فيه.

بعد ذلك استلقى «تادسيو» على الرمل للراحة مغطى بشرشف أبيض ملتف تحت كتفه الأيمن وقد وضع رأسه على ذراعه العارية. كان آشنباخ يحس بوجوده قريباً منه حتى عندما لا ينظر إليه وينشغل بقراءة صفحات من كتاب

بيده، ويعرف أن التفاتة خفيفة من رأسه إلى اليمين تتيح له متعة رؤية الفتى محط الأنظار ومثير الإعجاب. وكاد أحياناً يظن أنه قاعد هنا لحراسته وحمايته، وأنه رغم انشغاله ببعض الأشياء فهو متيقظ دوماً لوجود هذا الإنسان الرائع النبيل على الجانب الأيمن غير بعيد من مكان قعوده، ويحس بقلبه مفعماً ونابضاً بعطفٍ وحنان أبوي تشهد به عاطفة جياشة تجاه جمال روحاني يضحي من أجله ومن أجل صاحبه.

غادر الشاطئ بعد الظهر عائداً إلى الفندق وصاعداً إلى غرفته، وقضى فيها وقتاً طويلاً أمام المرآة يتأمل نفسه وشعره الأشيب ووجهه الحاد المجعّد. وفكر في هذه اللحظة بشهرته وأن الكثيرين في الشوارع قد عرفوه ونظروا إليه بتقدير وإعجاب بآرائه الصائبة الأمينة والمتوجّة بالاستحسان والقبول. واستذكر النجاحات الظاهرية التي حققتها موهبته والتي خطرت بباله، ورفعته إلى مصاف النبلاء. ثم نزل إلى الصالة لتناول طعام الغداء على طاولته الصغيرة. وعندما انتهى منه ودخل المصعد تدافع حوله نفر من الشبان أنهوا لتوهم تناول الغداء ودخلوا المصعد و«تادسيو» بينهم ووقف قريباً جداً من آشنباخ لأول مرة قريباً هكذا، بحيث أن الشاعر لم ينظر إليه الآن عن بعد كما ينظر إلى صورة كاملة بل راح يتأمله عن قرب وبدقة ويتعرف عليه بتفاصيل إنسانيته. سأل أحدهم شيئاً، فما أن بدأ يجيبه بابتسامة فاتنة لا توصف، حتى توقف المصعد في الطابق الأول وخرج متراجعاً

بظهره بينما ظلت عيناه مسدلتين إلى الأرض. فكر آشنباخ بأن الجمال يسبب الخجل وتساءل بإلحاح لماذا؟ وكان قد لاحظ أن أسنان «تادسيو» لم تكن تسر الناظر كما يجب، بل محززة قليلاً وشاحبة، وبدا ميناؤها بصحة رديئة وهشاً وشفافاً من نوع خاص كما هي الحال أحياناً لدى المرضى بفقر الدم. ففكر آشنباخ: «إنه ناعم جداً ومريض وربما لن يعيش طويلاً». وسرعان ما تخلّى عن محاسبة نفسه إزاء ما رافق هذه الأفكار من إحساس بالرضا والهدوء.

قضى ساعتين في غرفته وسافر بعد الظهر على القارب البخاري عبر البحيرة الساحلية الآسنة ورائحتها العفنة إلى البندقية. غادر القارب في سان ماركو، حيث تناول الشاي في الساحة، وبدأ تنفيذ نظام حياته اليومية بنزهة في الشوارع، كانت السبب في قلب مزاجه رأساً على عقب وتعديل جذري في قراراته. كانت الأزقة مثقلة برطوبة سمجة والهواء سميكاً لزجاً، تنتشر فيه الروائح المنبعثة من داخل المنازل والدكاكين والمدابغ، وقد تجمعت أبخرة الزيت وسحبٌ من العطور وغمامات أخرى من غير أن تنتشر أو تبتعد. كما ظل دخان السكائر معلقاً في مكانه ولم يتبدد إلا ببطء شديد، وأزعج ازدحام الناس في هذه الضائقة مزاج الرجل المتنزه بدلاً من تسليته. وكلما طال سيره كلما سيطر عليه شعور بالألم والاشمئزاز تثيره عادةً رطوبة هواء البحر مع ريح غربية موسمية تدعى «سيروكو» تؤدي إلى استفزاز عصبي وإرهاق جسدي معاً. تصبب منه

العرق غزيراً واخزاً، وفقدت عيناه قوة الإبصار وضاق صدره وارتفعت حرارة جسمه وبدأ الدم ينبض في رأسه. انطلق هارباً من الأزقة التجارية المزدحمة، وعبر جسوراً إلى حارات الفقراء، حيث صادف شحاذين وأطبقت على أنفاسه أبخرة المواسير الكريهة. وفي إحدى الساحات المنسية المهجورة في وسط مدينة البندقية قعد على سور بئر يستريح ويمسح العرق عن جبينه ويفكر بوجوب مغادرته البلاد.

لقد تبين للمرة الثانية وبشكل مؤكد أن الطقس في هذه المدينة يسبب له أقصى درجات الضرر والخطر وأن المكابرة صارت غير معقولة، وكذلك الأمل في أي تغيير على مجرى الريح. كان ضرورياً اتخاذ القرار بسرعة. لكن عودته الآن إلى بيته كانت شبه مستحيلة، فهو ليس معداً للصيف أو الشتاء. على كل حال لم ينحصر وجود البحر والشاطئ في البندقية، بل يمكن العثور عليها في أمكنة أخرى لا تفسدها أقذار البحيرة الساحلية ولا أبخرة الحمَّى.

تذكر شاطئاً صغيراً ليس بعيداً عن «تريست» أشاد بعضهم بشهرته، فلماذا لا يقصده وبلا تأجيل. كي لا يذهب تكرار استبدال مكان إقامته سدى؟ فاتخذ قراره بهذا الشأن ووقف واستقل عند أول مرسى للجندولات مركباً نقله عبوراً بمتاهة الأقنية العكرة، بين الشرفات المزمرية المزخرفة والمجنحة بتماثيل الأسود، والتفافاً حول زوايا الجدران

المنحدرة، مروراً بواجهات القصر الكئيبة وإعلانات بأسماء الشركات الكبيرة التي انعكست مساقطها على سطح الماء المتأرجح، باتجاه سان ماركو. كان الوصول إليه مرهقاً لأن سائق الجندول المتواطئ مع بائعي الدانتيلا وورشات نفخ الزجاج حاول في كل مكان إنزاله بقصد التفرج والشراء. فعندما بدأت الجولة الاستثنائية عبر البندقية تشع بسحرها فعلت المركنتلية الجشعة فعلها في إفساد الإحساس بأية متعة.

عندما عاد إلى الفندق أبلغ المكتب قبل العشاء بأن ظروفاً غير متوقعة تضطره للسفر صباح الغد، فقوبل طلبه بالأسف وبإعداد فاتورة الحساب. تناول الطعام وقضى المساء الفاتر في قراءة المجلات على كرسيه الهزاز في الشرفة الخلفية، ثم خلد إلى النوم بعد أن استكمل إعداد متاعه بكل عناية للمغادرة.

لم ينم كما ينبغي لأن انطلاقه المرتقب للسفر أرّقه. وحين فتح النوافذ في الصباح وجد السماء مازالت مكسوة بالغيوم كما كانت ولكن الريح بدت أكثر إنعاشاً. وهنا بدأ يساوره الندم. ألم يكن قراره متسرعاً ومضلّلاً ومجرد تصرف شخص مريض في حالة ليست ملائمة تماماً كان عليه استيعابها قليلاً. ألم يتوجب عليه أن يصمد وأن لا تخور عزيمته في محاولة للتأقلم مع هواء البندقية وانتظار تحسن الطقس فيها؟ كان سينتظره الآن، بدلاً من اللهاث والعناء، ساعات قبل الظهر على الشاطئ يقضيها مثل

الأمس. لكن الوقت متأخر الآن، وعليه أن يسافر، أن يفعل ما قرره بالأمس. لبس ثيابه وهبط في الساعة الثامنة لتناول الفطور في الطابق الأرضي.

كان المكان خالياً من الزبائن عندما دخل، ولم يبدأ البعض بالتوافد إلا وهو قاعد ينتظر ما أوصى عليه. وبينما كان فنجان الشاي يلامس فمه رأى البنات البولونيات مع مرافقتهن يقتربن، بنشاط وحيوية وانضباط وعيون محمرة، إلى طاولتهن في زاوية النافذة. بعد ذلك مباشرة اقترب منه موظف استقبال الفندق بقبعته البارزة وأخطره بقرب موعد الانطلاق، فالسيارة جاهزة لنقله مع مسافرين آخرين إلى فندق إكسلسيور حيث سيقلّهم قارب آلي عبر القناة الخاصة بالشركة إلى المحطة. ليس ثمة متسع من الوقت، على عكس ما كان آشنباخ يظن، لأن موعد انطلاق قطاره لن يحين قبل أكثر من ساعة. وقد أزعجته عادة الإدارة في صرف زبائنها المسافرين أبكر مما يلزم خارج الفندق، فأخبر موظف الاستقبال رغبته في تناول فطوره على مهل وبهدوء، فابتعد الرجل متردداً ليعود بعد خمس دقائق ويقول: «مستحيل أن تنتظر السيارة وقتاً أطول».

«إذن فلتقلع ولتأخذ معها حقيبته». هكذا أجاب آشنباخ بعصبية، وأضاف أنه سيركب في الوقت المحدد للسّفينة التجارية التابعة للنقل العام ويرجو أن يُترك أمر سفره إليه شخصياً. انحنى الموظف وفرح آشنباخ بالتخلص من تلك

الإنذارات السمجة، واستأنف تناول وجبته دون استعجال، بل إنه طلب من النادل إحضار صحيفة للقراءة. كان الوقت قد ضاق بالفعل عندها نهض أخيراً.

صادف أن دخل في لحظة نهوضه نفسها، عبر الباب الزجاجي «تادسيو» الذي اتجه إلى طاولة ذويه متقاطعاً مع طريق المسافر الناهض، وغضَّ عينيه لحظة مواجهة الرجل الأشيب عالي الجبين باحترام وتواضع، ثم ما لبث أن فتحهما على طريقته العذبة ووجههما كاملتين حنونتين نحوه ومضى.

فكر آشنباخ لنفسه:

«الوداع يا «تادسيو»، رأيتك ولو لفترة قصيرة». ومطّ على غير عادته شفتيه، وهمس لنفسه متابعاً:

«باركك الله». وتابع انطلاقه للسفر فوزع الإكراميات وترك مدير الفندق القصير الهادئ ذا السترة الفرنسية يودعه، وغادر الفندق سيراً على الأقدام كما وصل لحظة قدومه واتجه عبر الشارع العريض المزدان بالورود على عرض الجزيرة، متبوعاً بخادم الفندق الذي يحمل له متاعه قاصداً جسر السفينة البخارية الذي عبره واتخذ مكاناً في داخلها. وكان ما تلا ذلك رحلة شاقة مملوءة بالهموم ووخزات الندم العميق.

كان الطريق على البحيرة الساحلية معروفاً ويمر بسان ماركو إلى القناة الكبيرة. وقد قعد آشنباخ على

المقعد نصف الدائري في صدر السفينة مسنداً ذراعه إلى جدارها ومظللاً عينيه بيده. تجاوزت السفينة الحدائق العامة وفتحت البيازيتا بابها بإغراء وبهاء ثم عادت مهجورة كما كانت، وجاءت سلسلة ضخمة مستقيمة من القصور، وعندما انعطف الشارع المائي ظهر عقد جسر ريالتو المرمري الرائع. كان المسافر يتفرج وصدره يتمزق. إن بيئة المدينة وتلك الرائحة العفنة الصادرة عن البحر والمستنقع، والتي دفعته بإلحاح للهروب منها، جعلته الآن يتنفسها بشهقات عميقة طرية يشوبها الحزن والأسف. هل يمكن أنه لم يعلم ولم يحسب حساباً لمدى تعلق قلبه بكل هذا؟ إن ما طرأ صباح اليوم من نصف ندم وبداية شك في صِحة ما قام به يتحول الآن إلى أذى وألم فعلي، إلى معاناة روحية مريرة إلى درجة أن عينيه اغرورقتا مِراراً بالدموع، اعترف بأنه لم يكن قادراً على توقعها. إن ما يثقل عليه جداً ويبدو أنه لايطاق هو فكرة أنه لن يرى البندقية أبداً بعد الآن وأن وداعها هذا هو الأخير. فلقد تبين للمرة الثانية أن هذه المدينة جعلته مريضاً وأنه يغادرها مرغماً مرة أخرى، وأن عليه اعتبارها مكاناً أصبحت الإقامة فيه ممنوعة بل مستحيلة أو هو غير قادر بعدُ عليها، وأن من العبث محاولة العودة إليها من جديد. نعم، لقد شعر أيضاً أنه إذا غادرها الآن منعه الخجل والكبرياء من التفكير مرة ثانية في رؤية المدينة المحبوبة التي خارت فيها قواه الجسدية مرتين. وقد بدا الصراع بين الميول الروحية والقوى الجسدية في هذا الكهل صراعاً ثقيلاً وخطيراً. كان

عليه أن يكبح جماح الهزيمة البدنية ويتجنبها بأي ثمن وأن لا يتقبل ذلك الاستسلام الأرعن الذي اقترفه بالأمس بلا مقاومة جادة بل واعترف به واستسلم له.

اقتربت السفينة البخارية من المحطة وتصاعد قلقه وحيرته إلى حد الارتباك. لقد تبين له أن سفره مستحيل وأن عودته ربما كانت كذلك. دخل المحطة منهاراً وممزقاً تماماً، فقد تأخر الوقت ولم يعد لديه لحظة يبددها إذا أراد اللحاق بالقطار. يريد ولا يريد، لكن الوقت يلح ويدفعه بقسوة إلى الأمام. إنه يسرع لشراء بطاقة سفر ويبحث عن موظفي الفندق في زحمة صالة الركاب ويظهر أحدهم فيعلمه بأن الحقيبة الكبيرة قد سلمت للشحن إلى «كومو». ولماذا إلى كومو؟ وفي خضم تبادلٍ سريعٍ للشروح وطرح الأسئلة الغاضبة وأجوبتها المرتبكة، تبينَ أن الحقيبة في مكتب المتاع التابع لفندق إكسلسيور تم إرسالها مع حقائب أخرى غريبة في الاتجاه الخاطئ تماماً.

بذل آشنباخ جهداً في ضبط سحنته التي كانت وحدها في ظرف كهذا مكشوفة للعيان. وفجأة اهتزت في صدره فرحة بالمغامرة اقترنت بيقظة ذهنية تكاد لا تصدق لأنها جاءت بقوة وبما يشبه التشنج. ركض الموظف في محاولة لاستيقاف الحقيبة لكنه عاد كما كان متوقعاً يجر أذيال الخيبة. وهنا أوضح آشنباخ أنه لن يسافر دون حقيبته، بل سيعود، وقد قرر انتظار إحضارها إليه في فندق الحمّامات. وسأل ما إذا كانت السفينة البخارية التابعة

للشركة ما زالت راسية في المحطة، فأكد له الموظف بالباب ذلك، وطلب بالإيطالية الدارجة من موظف الكوة إعادة ثمن البطاقة المشتراة، كما أقسم على إرسال برقية يطلب فيها عدم توفير أي جهد في استعادة الحقيبة بأسرع ما يمكن. وهكذا حدثت المفارقة الفريدة وهي أن يرى المسافر نفسه بعد عشرين دقيقة من وصوله المحطة عائداً عبر القناة الكبيرة إلى حاجز الليدو المائي.

كانت مغامرة عجيبة لا تُصدق وأشبه بحلم هزلي مُخجِل، أن يغادر المرء أمكنةً يودّعها إلى الأبد وقدً غمرته كآبة عميقة، ما يلبث في الساعة نفسها أن يعود ليراها مدفوعاً بيد القدر. تابعت السفينة الصغيرة مخترقةً الزبدَ أمامها ورشيقةً في حركتها بين الجندولات والسفن البخارية باتجاه هدفها تحمل راكباً وحيداً، أخفى وجهه المتوتر الخائف كصبي هارب بقناع من الاستسلام الحانق. وقد تحرك صدره بين الفينة والأخرى ضاحكاً على الخيبة التي أصابته، كما قال في نفسه، وكأنها أصابت طفلاً ولد وفي فمه ملعقة من ذهب. كان ثمة إيضاحات يجب تقديمها ووجوه مذهولة ينبغي إرضاؤها، وسيصبح برأيه كل شيء على ما يرام كما كان. لقد تجنب على كل حال وقوع كارثة وصحح خطأ جسيماً، وكل ما ظن أنه خلّفه وراء ظهره راح ينفتح أمامه من جديد ويصير ملكاً له في أي وقت يشاء.

هل كان وهماً بسبب الرحلة السريعة أم هي الريح التي هبت عليه فعلاً بهذه القوة قادمة من البحر؟ لقد ضربت

الأمواج جدران الإسمنت المسلح في القناة الضيقة عبرَ الجزيرة حتى فندق إكسلسيور، حيث تقف سيارة كانت في انتظاره أقلته مباشرة عَبْرَالطريق المطلّة على البحر المُزبد إلى فندق الحمّامات. وجاء الرجل القصير ذو الشارب بحلّته المهتزة لاستقباله هابطاً الدرج المكشوف.

راح يُعبّر مجاملاً عن أسفه للحادث ويصفه بأنه مزعج له وللإدارة، ويؤيد بقناعة كاملة قرار آشنباخ انتظار حقيبته هنا. كانت غرفته بالطبع قد أعطيت لشخص آخر، لكن هناك غرفة غيرها ليست بأسوأ منها وضعت في خدمته. ابتسم عامل المصعد السويسري قائلاً له بالفرنسية: «حظٌ سيء ياسيدي». وهكذا وجد اللاجئ مأوى في غرفة تشبه تماماً غرفته القديمة في موقعها وأثاثها.

وما أن أفرغ محفظة يده من محتوياتها في الغرفة حتى استرخى على كرسي مسنود يطل على النافذة المفتوحة زائغاً وقد أنهكته دوامة ما قبل الظهيرة. رأى أن البحر اصطبغ بلون أخضر باهت ولاحظ أن الهواء صار أرقّ وأنقى وأن الشاطئ بأكواخه وقواربه صار أزهى وأنضر، رغم أن السماء ظلّت بلون الرماد. نظر عبر النافذة إلى الخارج وقد طوى يديه في حضنه فأحس بالرضا لوجوده هنا من جديد، لكنه هزّ رأسه غير راض عن مزاجه المتقلب وجهله بحقيقة رغباته. ثم ظل نحو ساعة يستريح مستسلماً لأحلام يقظة غامضة. عند الظهيرة لَمح «تادسيو»، وكان

يرتدي بذلة كتانية مخططة ذات غرزة حمراء على صدرها، قادماً من البحر عبر الحاجز سيراً على الألواح الخشبية باتجاه الفندق. عرفه آشنباخ فوراً من الأعلى قبل أن يراه تماماً بعينيه وأراد أن يقول مرحّباً: «ها أنت ذا من جديد يا«تادسيو». أرأيت؟». وشعر في اللحظة نفسها كيف تلاشت تحيته السمجة هذه أمام حقيقة قلبه وخرست قبل أن تخرج. لقد شعر بالسعير في دمه وبالفرح والألم معاً في روحه، وعرف الآن بوضوح أن الذي جعل رحيله صعباً وقاسياً هو وجود «تادسيو».

ظل جالساً بصمت لا يراه أحد في موقعه العالي وفحص ضميره، كانت قسمات وجهه قد تيقظت وحاجباه قد ارتفعا وارتسمت على فمه ابتسامة اهتمام وفضول وذكاء. رفع رأسه بعد ذلك ورسم بذراعه المسترخيتين على مسندي الكرسي حركة بطيئة يدير فيها شيئاً ما ويرفعه، وقد بسط راحتي كفيه وكأنه يمثل فتح الذراعين ومدهما إلى الأمام. كانت حركة استقبال بالترحاب العفوي الصادق.

4

وسيّر الإله إيروس ذو الوجنتين اللاهبتين مقادير الأيام المتوالية عارياً على عربته ذات الخيول الأربعة عبر أركان السماء. وقد تطايرت خصلة شعره الذهبية باتجاه هبوب ريح الشرق، ولمعت عن بُعد عوامات متماوجة ببريق أبيض حريري، وتلظت رمال الشاطئ. وكان يتخلل زرقة الهواء الفضية أشرعة بلون الصدأ نُصبت فوق الأكواخ، وقد احتمى الناس بظلالها على بقع محدودة لقضاء ساعات قبل الظهر. لكن المساء كان ممتعاً عندما أرسلت نباتات الحديقة عطورها المنعشة، ولامست الروح نجوم تتراقص وأمواج تهمس للبحر الهاجع. كان كل مساء كهذا يحملُ في طياته ضماناً ليوم مشمس جديد تملؤه الراحة المنظمة بيسر، وتزيّنه احتمالات غير محدودة ومتعاقبة بكثافة لحدوث مصادفات جديدة سعيدة.

النزيل الذي أبقاه هنا خطأ إجرائي لم يكن مستعداً لرؤية سبب يدفعه إلى السفر من جديد واستعادة أمتعته. لقد أمضى يومين طويلين صابراً على الاستغناء عنها واتجه

نحو المطعم مرتدياً بذلة السفر في الصالة الكبيرة. وبعد ذلك عندما وضعوا أخيراً متاعه الضال في غرفته أسرع يفرغ أشياءه بدقة ويملأ الخزانة والدروج بأشيائه مقرراً البقاء مؤقتاً حتى موعد غير محدد. أبهجه أن يراه الناس ساعات على الشاطئ ببذلة حريرية، وأن يرتدي للغداء بذلة أنيقة رسمية يقعد بها إلى طاولته الصغيرة.

سيطر عليه هذا الإيقاع الرتيب المريح، وخدعته نعومة العيش اللماعة بسرعة، ويا لها من إقامة ربطت بالفعل بين الاستجمام على شاطئ وفي مسبح نظيفين في الجنوب والقرب اليسير المأمون من المدينة الرائعة النادرة. لم يكن آشنباخ سابقاً يحب المتعة، وكان كلما سنحت له فرصة للاحتفال أو الخلود إلى الراحة عدة أيام جميلة، سيطر عليه، ولاسيما إبان سنوات شبابه، نزوع وقلق وإرادة مناهضة وعودة إلى ضنك ومشاق واجبه اليومي الرشيد المقدس. لكن هذا المكان هنا سحره وروّض إرادته وأدخل الفرح إلى قلبه. كان يقعد أحياناً قبل الظهر في ظل خيمة أمام كوخه ليحلم بزرقة بحر الجنوب. أو في الليل الفاتر مستنداً إلى مخدات الجندول الذي ينقله من ساحة سان ماركو التي يمكث فيها طويلاً، إلى الليدو تحت السماء المرصعة بالنجوم. وقد ترك وراءه الأضواء الملونة وأصداء أنظام السيرينادا الذابلة. وبدأ يتذكر قطعة الأرض التي يملكها في الجبال ومواقع كفاحه الصيفي. حيث تقتحم الغيوم المنخفضة الحديقة وتطفئ صاعقةٌ

مخيفة في المساء أنوار المنزل وتتأرجح الغربان، التي كان يطعمها، على قمم أشجار التنوب. ويظهر له بعدها أنه انتقل الآن إلى الفردوس على حدود الكرة الأرضية. حيث كُتبت للإنسان حياة لا أسهل ولا أهنأ وحيث لا ثلج ولا شتاء ولا عاصفة ولا مطر مدرار، بل دائماً نفحات رقيقة آتية من الأوقيانوس(*) تنصرم معها الأيام بدعّةٍ وبلا تعب ولا صراع وتكرس نفسها للشمس ولأعيادها.

صار آشنباخ يرى الفتى «تادسيو» كثيراً ودائماً تقريباً. فالمكان المحدود ونظام الحياة المشترك لكل منهما ساعدا على أن يبقى الجميل معظم ساعات النهار قريباً منه. لقد رآه والتقى به في كل مكان، في صالات الفندق الأرضية وأثناء الرحلات المائية المنعشة إلى المدينة والعودة منها، وفي بهو المكان نفسه وأحياناً أيضاً على الدروب والممرات عن طريق المصادفة. وبشكل أساسي منحه الشاطئ قبل الظهر، وبانتظام، فرصة ذهبية طويلة كي يتأمل الظاهرة المفرحة الحبيبة ويكرس روحه لدراستها. نعم، فهذه الكمية المحدودة من السعادة وهذه النعمة اليومية التي هبطت عليه بانتظام في ظروف استثنائية ملأت نفسه بالرضا وحب الحياة، ما جعل إقامته عزيزة على قلبه مع توالي الأيام المشمسة وانسيابها صافية مريحة.

(*) الأوقيانوس: اسم قديم ديني للبحر الأبيض المتوسط. م.

كان يستيقظ باكراً، كما فعل دائماً أيام ضغوط العمل الشاق، ويسرع إلى الشاطئ، والشمس ماتزال لطيفة والبحر ما يزال يلمع بالبياض مع أحلامه الصباحية. كان يحيّي بودّ حراس الحاجز وكذلك الرجل ذا اللحية البيضاء حافي القدمين، الذي كان قد هيأ له المكان، ونصب المظلة الظليلة وأخرج عفش الكوخ إلى الرصيف. ثم يستلقي على الأرض ثلاث أو أربع ساعات تصعدُ الشمس بعدها وتحقق سلطةً رهيبة بينما يزرقّ البحر أعمق فأعمق ويصبح من الممكن رؤية «تادسيو».

لقد رآه قادماً من اليسار على امتداد الشاطئ. أو رآه من الخلف يسير بين الأكواخ، أو فوجئ وهو يشهق فرحاً بأنه لم يلاحظ قدومه وأنه صار هنا قريباً منه مرتدياً لباس السباحة الأزرق والأبيض، وهو اللباس الوحيد الذي يرتديه على الشاطئ، وممارساً نشاطه المعتاد بين أشعة الشمس والرمال. هذه الحياة الخاملة المتقلبة التي تمثلت في اللعب والراحة والتسكع والغطس في الماء والحفر في الرمل والتسابق والاستلقاء والسباحة، وكل ذلك تحت حراسة واستدعاء النسوة على الرصيف اللواتي ينادين اسمه بأصوات مدوّية «تادسيو... تادسيو» فيهرع إليهن مُظهراً الطاعة والتهذيب، ويروي لهن ما حدث معه ويريهن ما وجده من أصداف وزنابق بحر وهلاميات وسرطانات مرت من جانبه.

لم يفهم آشنباخ كلمة واحدة مما يقوله، لكنه كان

يترقب حديثه كل يوم ويستقبله في أذنيه لحناً مطرباً متناغماً. منحته طلعة الفتى البهية فعل الموسيقي وغمرته للشمس الجريئة بألق سخي، وكانت صورة البحر العميقة الجليلة تشكل خلفية شفافة لإطلالته.

وبالتدريج تعرف المتأمل على كل خطوط وصفحات جسم الفتى المنتصب المتحرر، ورحب مسروراً بكل مايتجدد أمام عينيه من جمال يقابله دائماً بإعجاب ولذة جسدية رقيقة. وعندما نودي الفتى كي يلقي التحية على أحد ضيوف النسوة في الكوخ مشى من أمامه مبتلاً من الأمواج. ثم رفع خصلات شعره وبينما مد يده للمصافحة واقفاً على قدم واحدة ورؤوس أصابع القدم الأخرى، شكل جسده حركة التفات مثيرة رائعة وفاتنة برقتها وبهائها وأصالتها كتأدية واجب أرستوقراطي نبيل. كان قد استلقى متمدداً والمنشفة ملتفة على صدره والذراع المتناسق الرقيق ملتصق بالرمل والذقن مستندة إلى اليد المفتوحة، أما الفتى الذي نودي باسم «ياشو» فقد قعد متكوراً بالقرب منه وبدا سعيداً بمرآه. ولم يكن أحلى وأكثر سحراً من ابتسامة جمعت بين العينين والشفتين وجّهها المتميز السامي إلى ضيفه المتملق المتواضع، ثم وقف وحيداً على حافة البحر بعيداً عن أقرانه وقريباً جداً من آشنباخ. كان منتصب القامة وقد شابك يديه خلف عنقه وراح يتأرجح ببطء على مفصلي قدميه وهو يتأمل حالماً زرقة البحر. بينما غسلت موجات صغيرة أصابع قدميه بالماء وتَشكَلَ

شعره العسلي ذؤابات في صدغيه ونقرته، وأضاءت الشمس الساطعة أعلى عموده الفقري وخطوط أضلاع صدره المتناظرة البارزة على جذعه النحيل. كان الإبطان مايزالان أملسين كما التمثال، وركبتاه تلمعان وأعطت أوعية الدم الزرقاء عليهما انطباعاً بأن جسده قد خلق من مادة نقية صافية.

أي نظام؟ وما هذه الدقّة في التعبير عن الفكر الصادر عن هذا الجسد الفتيّ كامل الأوصاف. إنها الإرادة الصارمة النقية التي عملت سراً من أجل أن يرى هذا الإنجاز الإلهي نور الحياة. ألم يكن ذلك معروفاً لديه كفنان؟ ألم يؤثر فيه أيضاً عندما يكون يقظاً متحفز الشعور، وعندما ينحت من كتلة المرمر اللغوية ذلك الشكل الرشيق من الكلمات التي رآها بإحساسه وسخّرها لوصف جمال الإنسان تمثالاً ومرآة للروح؟

تمثال ومرآة! ولمّت عيناه الشكل النبيل هناك على حافة الزرقة، وظن وهو مخلوب اللب أن نظرته إلى الجميل قد هيأت له فهم فكرة الإله، وهي فكرة الكمال الوحيد النقي الذي يعيش داخل الروح ويترك عنه صورة بشرية شبيهة به كي يسهل تأملها والابتهال إليها. كانت سكرة رحّب بها الفنان الكهل بلا شروط وسعى لأن يستزيد منها، فضجّت روحه وفارت مخيلته وقذفت ذاكرته بأفكار قديمة من فترة شبابه لم يتقد بها ذهنه تلقائياً أبداً قبل الآن. ألم يرِدْ في

النصوص أن الشمس تحوّل أذهاننا عن الأشياء الفكرية إلى الأشياء الحسية، وأنها تخدّر وتسحر العقل والذاكرة بحيث تنسى الروح نفسها أمام حالات خاصة من المتعة، وتتعلق معجبة مدهوشة بأجمل المحسوسات، وهي لا تستطيع إلا بمساعدة الجسد أن تسمو إلى تأملات أرقى. لقد فعل ذلك آمور(*) كما يفعل علماء الرياضيات عندما يعرضون على الأطفال قليلي الموهبة صوراً ملموسة لأشكال نقية صافية. هكذا فعل الإله كي يرينا الأشياء الروحية أمام أعيننا ولاسيما شكل ولون المراهقة الإنساني، الذي يستخدمه أداة للذكرى بما يزخرفها به من انعكاس الجمال وما يسببه لنا النظر إليها من اشتعال الألم والأمل.

هكذا كان يفكر وسط حماسه وذلك ما استطاع أن يحس به، وتراءت له من سكرة البحر والتماع الشمس صورة مثيرة. كانت في وسطها شجرة الدلب العريقة بالقرب من أسوار أثينا في مكان تظلله القدسية ويغمره عطر أزهار الشجرة البتول وتزينه صور مباركة وأعطيات تقية تقرّباً من شرف الحوريات والإله أخيل(**)، والجدول الصافي يجري تحت الشجرة المتفرعة جذورها على الحصى الصقيل، والزيزان تغني أغنيتها الحادة. لقد تجاوروا على المرج الأخضر المنحدر بنعومة، بحيث يستطيع المرء

(*) آمور: إله الحب عند الرومان. م.
(**) أخيل: إله البطولة والشجاعة عند الإغريق. م.

المستلقي أن يرفع رأسه إلى الأعلى. تجاورا يحتميان من لظى النهار، واحد كهل وآخر شاب، واحد قبيح وآخر جميل، الحكيم والحبيب معاً. لقد علّم سقراط تلميذه «فايدروس(*)» باللطف والطرافات المغرية، مسائل الرغبة والفضيلة. حدّثه عن الانفعال الغامض الذي يعاني منه الشاعر، مرهف الحس، كلما رأت عيناه نظيراً للجمال الأبدي: كلمه عن شهوات الخبثاء الدنيوية، الذين لايستطيعون وعي الجمال عندما يرون صورة عنه، ولايحسون أمامه بالخشوع والتعظيم. حدثه عن الخوف المقدس الذي يلم بالنبلاء والأشراف عندما يطل عليهم بهاء رباني يلف جسداً وصل إلى الكمال، وكيف أن أحدهم يرتجف ويخرج عن طوره ولا يكاد يجرؤ على النظر بعينيه بل يلجأ إلى تقدير صاحب الجمال والإعجاب به. إنه يقدم قرباناً من أجله كما لو كان صنماً يعبده ولا يخاف بذلك أن يظهر للناس بمظهر المعتوه. قال سقراط لتلميذه: «إن الجمال، يا فايدروس، الجمال وحده يجمع بين المودة والرقة ووضوح الرؤية معاً. إنه، وانتبهْ لذلك جيداً، الشكل الوحيد المعبّر عن المضمون الروحي، الذي نستطيع أن نستقبله بالحواس ونتحمله وإلا ما هو مصيرنا إذا بدت لنا الألوهية والعقل والفضيلة والحقيقة أشياء محسوسة؟ ألن يُقضى علينا احتراقاً بالحب؟ كما حدث لسيميلي أمام وجه

(*) فايدروس: ابن إله الشمس الإغريقي. م.

الإله زيوس؟ إن الجمال أداة الإحساس بالروح. الأداة والوسيلة فقط يا عزيزي فايدروس»، ثم نطق بأحلى الكلام، ذلك الغاوي طالب القرب: «إن المحب أكثر ألوهية من المحبوب، لأن الله موجود فيه، وليس في الآخر». وإلى ذلك من الأفكار الهشة الساخرة التي كانت قد وردت إليه منبثقة عن خبث وانهماك سري في الملذات تحت غطاء تشوق النفس وظمئها. كانت سعادة الكاتب هي الاعتقاد بأن الإحساس التام قادر على التحول إلى فكرة تامة، وأن فكرة نابضة بالحياة كهذه وشعوراً كاملاً كهذا ينتميان ويعطيان أساساً وحيداً من الماضي وهو أن الطبيعة ترتجف من النشوة كلما انحنت الروح إجلالاً أمام الجمال. تمنى فجأة أن يكتب، ويقال إن الخمول ينتظر الإلهام وهو إنما خلق من أجله. لكن هذه النقطة بالذات من الإشكالية كانت مركزة في تحريض صاحبها على الإنتاج بصرف النظر تقريباً عن الحافز والمبرر. هناك في ذهنه سؤال يحمل تحريضاً على فهم واستيعاب مشكلة محددة وكبيرة من مسائل الحضارة والذوق. لقد دخل السؤال الآن إلى عالم الروح وراح ينتشر عميقاً في عروق المسافر وأعصابه. بدا الموضوع سهلاً عليه وقد جربّه وعاشه، وهو أن يجعل نزوته تلمع في ضوء كلمته وتصير قدراً لا يقاوم. وبالفعل اتجهت رغبته إلى العمل أثناء وجود «تادسيو» قريباً منه وأن يتخذ في كتابته تفاصيل صورة الفتى وتكونها مقياساً ونموذجاً، وأن يتبع في أسلوبه خطوط جسده الذي بدا له إلهياً، وأن يترجم

جماله إلى عمل فكري. كما حمل العُقاب في قديم الزمان راهب طروادة إلى الأثير، لم يحس من قبل قط بمتعة أحلى للكلمة ولم يعرف أن الإلهام يكمن داخلها، إلا عندما صار يجلس ساعات طويلة لذيذة إلى طاولته الخشبية تحت المظلة في مواجهة الوثن الجميل ويصغي إلى موسيقى صوته ويكتب عن جمال «تادسيو» مقالته القصيرة في صفحة ونصف من النثر المتميز. كانت بالتأكيد ستثير بسرعة إعجاب الكثيرين لما فيها من نقاء ونبل وإحساس متدفق. إن العالم يعرف العمل الجميل ولا يعرف أصوله وظروف نشوئه. وهذه نقطة جيدة، لأن معرفة المنابع التي ينشأ منها الوحي عند الفنان قد تسبب التشويش والصدمة وتفسد التميّز، لأنها ساعات فريدة من جهد يوهن الأعصاب. إنه احتكاك نادر ومثمر بين الروح والجسد. وعندما كف آشنباخ عن العمل ونهض مغادراً الشاطئ أحس بإرهاق وإعياء شديدين كما لو أن ضميره يحاسبه على انحرافه إلى الفجور.

وحدث في صباح اليوم التالي أنه وهو يغادر الفندق هابطاً الدرج المكشوف رأى «تادسيو» متجهاً نحو البحر ـ وحيداً ـ ويقترب من حاجز الشاطئ. دهمته رغبة عفوية في انتهاز الفرصة وأن يتعرف عليه ببساطة وحيوية، رغم ما سبب له دون علمه من إعلال وإشغال، أن يتكلم معه ويسعد بجوابه ونظرته. واشتدت هذه الرغبة وألحت. وكان الجميل يسير متلكئاً بحيث يمكن إدراكه، فأسرع آشنباخ خطاه

ووصل إليه على ممر الألواح خلف الأكواخ، أراد أن يربّت بيده على رأسه أو كتفه وينطق بكلمة ما. وحطت على شفتيه جملة تودد فرنسية، فشعر بأن قلبه، ربما من سرعة المشي، يضرب كالمطرقة في صدره وأنه لن يستطيع بسبب ضيق تنفسه الكلام إلا بصوت ضائق ومرتعش. تردد وحاول أن يسيطر على نفسه، وخاف فجأة بعد فترة من مشيه وراء الجميل أن يلفت إليه الأنظار ولا سيما بتلفته حوله بحذر وفضول، وهمَّ مرة أخيرة بالشروع لكنه تخاذل واستغنى وتجاوز هدفه صامتاً منكس الرأس.

فكر في هذه اللحظة أن الوقت قد تأخر، فهل تأخر حقاً؟ هذه الخطوة التي فشل في القيام بها ربما كانت ستثمر شيئاً طيباً سهلاً ومفرحاً، وتؤدي إلى صحوة شافية. السبب الوحيد هو أن الرجل الكهل لم يشأ أن يصحو من سكرته الغالية، ومن يستطيع حلّ لغز طبيعة الفن وبصمته الخاصة؟ من يستطيع فهم الانصهار الغريزي بين التربية والانفلات وسببه؟ إن عدم توافر إرادة صحوة شافية يعني الإباحة والانفلات، لكن آشنباخ لم يكن راغباً في فقد الذات. إن نكهة السنوات التي عاشها وكذلك دستورها الروحي المتمثل في احترام الذات والنضوج والفردية المتأخرة، جعلاه يعزف عن البحث في الأسباب واستنتاج ما إذا كان تخاذله عن تنفيذ نيته يعود إلى يقظة الضمير أم إلى الانحلال والضعف. كان مشوشاً وخاف أن يكون أحد ما، كحارس الشاطئ، قد لاحظ خطواته السريعة

ثم هزيمته. خاف كثيراً من السخرية، وما لبث أن مازح نفسه متهكماً على خوفها التقي العجيب، ووصفها بالمذعورة وأنها تشبه ديكاً ترك جناحيه في المعركة يتدليان بلا حراك. إنه الإله الذي يكسر جرأتنا في النظر إلى المحبوب، ويحطّ تماماً من الشموخ إلى الأرض كبرياءنا. ثم لعب وتأمل واكتشف أن لديه من الشموخ ما يمنع عنه الخوف من أي عاطفة.

لم يعد ينتبه إلى مرور فترة الاسترخاء التي منحها لنفسه لأن فكرة العودة إلى البيت لم تخطر بباله مرة واحدة، فقد خصص لرحلته كثيراً من النقود. المشكلة الآن هي موعد سفر العائلة البولونية المتوقع، فاستفسر عن ذلك بعدة أسئلة طرحها عرضياً على حلاق الفندق حتى عرف أن هذه الأسرة وصلت قبل مجيئه بوقت قصير. وها هي ذي الشمس تصبغ وجهه ويديه بالسمرة ونفحة الملح المثيرة تشد من عزيمته للإحساس. كان قد اعتاد عند كل انتعاش بعد نوم أو غداء أو مشوار في الطبيعة، أن يهرع إلى العمل والكتابة، لكنه ترك الآن كل هذه المقويات اليومية كالشمس والكسل وهواء البحر تذهب سدى وهدراً في سكرة الإحساس الذي صار قادراً عليه.

أصبح نومه خفيفاً والليالي القصيرة الملأى بقلقٍ مُبهج تفصل بين النهارات اللذيذة المتماثلة. صحيح أنه كان يأوي مبكراً إلى غرفته، لأن «تادسيو» كان يختفي من المشهد في الساعة التاسعة، وبذلك يبدو له أن النهار قد انتهى. لكنه

كان يستيقظ مع أولى تباشير الصباح على اهتزاز عميق ناعم، إذ أن قلبه يتذكر مغامرته فلا يعود يطيق ألم المخدة وينهض محتمياً قليلاً من رذاذ المطر الباكر ليقعد جوار النافذة المفتوحة بانتظار شروق الشمس. وقد ملأ هذا الحدث الرائع نفسه التي طهرها النوم بانفعال ديني، بينما ظلت السماء والأرض ومياه البحر مكسوة بسديم الفجر الزجاجي الأسطوري، وما زال هناك نجم يسبح متأخراً في اللاماهية، حين جاءت لطمة مفاجئة، خبر عاجل من مساكن بعيدة يقول إن «إيوس» نهضت من جانب قرينها وأن الخطوط على أقصى حدود السماء والبحر قد تلونت بأحمر حلو تظهر من خلاله مشاهد عملية الخلق. الإلهة تقترب وكذلك خاطفة الطفل التي سرقت كلايتوس وكيفالوس واستمتعت رغم حسد جميع سكان جبل الأولمب بحب «أوريون». وقد بدأ على حافة العالم نثر الورود احتفاء بشروق وإزهار يحملان المحبة وغيوماً طفولية ممجّدة ومضاءة، تسبح معها آلهة حب صغيرة بعطرها الزهري المزرق. وسقط الأرجوان على البحر الذي بدا أنه يفيض فوّاراً إلى الأمام وأن سهاماً ذهبية ترتجف صاعدة من الأسفل إلى السماء، وقد تحول البريق إلى حريق بلا صوت. وبقدرة إلهية عظمى التف الجمر والشبق معاً فتحولا إلى ألسنة لهب متأججة صعدت تتسابق مسلحة بحوافز الأخوة المقدسة متجاوزةً محيط الأرض إلى الأعلى. وجلس الحارس الوحيد. مضاءً بعظمة الإله وأغمض عينيه سامحاً للمجد بأن يُقبّل أجفان عينيه. إنها مشاعر قديمة

وتجارب سابقة لذيذة خاضها القلب وانقرضت في صرامة حياته اليومية، تعود الآن وقد تحولت بشكل فريد، لقد أدركها بابتسامة مشوشة عجيبة، وتمعّن فيها وتأمل وراح يحلم. وببطء شكلت شفتاه اسماً وما زال يبتسم، وتعود سحنته فتعلو وتنطبق يداه في حضنه ويغفو على كرسيه من جديد.

لكن النهار الذي بدأ حيوياً واحتفالياً تحول بكامله إلى الندرة وصار أقرب إلى الأسطورة. من أين جاءت تلك النفحة التي تشبه في نعومتها وأهميتها همسة وحي علوية تداعب الصدغين والأذنين؟

تبعثرت في السماء غيمات صغيرة بيضاء كالريش وشكلت أسرابا تشبه قطعان الآلهة وهي ترعى. وهبت ريح أقوى، وتحركت خيول بوسّيدون(*) حَروناً وكذلك الثيران التي يغريها اللون الأزرق فتطيعه وتجري صارخة وخافضة قرونها. وهناك على وعورة الصخور البعيدة من الشاطئ تقافزت الأمواج كعنزات تتواثب في الهواء. هكذا دخل المخدوع عالماً شوشته القداسة وملأته حياة الفزع، وراح قلبه يحلم بأساطير ناعمة. وغالباً ما غابت الشمس خلف البندقية، وظل على مقعده في الحديقة كي يرى «تادسيو» الذي كان يأتي بلباسه المزنّر بالألوان ويلعب الكرة مسروراً على ساحة الحصى المضغوط ويظن

(*) بوسّيدون: إله البحر عند الإغريق. م.

أنه يرى هياكينتوس(*) الذي يجب أن يموت لأن إلهين وقعا في حبه. وأحس بحسد زفيروس(**) المؤلم تجاه منافسه الذي تناسى قول الكهنة والعرّافين وتجاهل قوس القيثارة المقدسة، من أجل أن يلهو مع الجميل المحبوب. لقد شاهد حلقة الصيد تطلقها الغيرة القبيحة فتصيب الرأس الحبيب، وأحس هو أيضاً بالجسد المتراخي وبالوردة المولودة ينبجس منها الدمُ الثمين، وشحب وجهه وحمل وشم الاتهام الأبدي.

ليس هناك ما هو أكثر فرادة وصعوبة من العلاقة بين شخصين لا يعرفان بعضهما إلا بوساطة العينين، وهما يلتقيان كل يوم بل كل ساعة ويراقب أحدهما الآخر، ويحافظان مع ذلك على مظهر اللامبالاة كالغرباء فلا يوجهان تحية ولا كلمة بل يخضعان لضغط العادات أو لنزوة منهما. يسيطر عليهما القلق والفضول المتحفز وهستيريا الحاجة إلى اعتراف ظل مكبوتاً قسرياً ضد طبيعة الاعتراف وإرادة الطرفين في تبادله ولو تم ذلك على شكل من أشكال الاحترام الكامن، لأن الإنسان يحب الإنسان ويحترمه ما دام غير قادر على الحكم عليه. وما الشوق إلا نتيجة نقص في المعرفة والاعتراف. لا بد إذن من تكوين أي علاقة تعارف بين آشنباخ والفتى «تادسيو»، وقد استطاع الكهل بفرح عارم أن يتأكد من أن هناك استجابة للمشاركة

(*) هياكينتوس: ملاك إغريقي جميل. م.
(**) زفيروس: إله إغريقي. م.

والاهتمام. وإلا فلماذا لم يعد الفتى الجميل، على سبيل المثال، يسلك ممر الألواح خلف الأكواخ كل صباح عندما يظهر على الشاطئ؟ بل يمشي على الطريق الأمامي على الرمل مروراً بمكان وجود آشنباخ، وأحياناً على مقربة غير ضرورية من طاولته وكرسيه حتى يكاد يلامسهما وهو يتسكع متجهاً إلى كوخ أهله؟ هل هذا أثر للجاذبية أم لسحر شعور طاغ فعلَ فِعله في هذا المخلوق الرقيق الخالي من الأفكار؟ كان آشنباخ ينتظر يومياً ظهور «تادسيو» وكان أحياناً يفتعل الانشغال لحظة قدومه ويتركه يمر دون أن يلاحظ اهتمامه به. وأحياناً أخرى ينظر إليه مباشرة تلتقي نظراتهما. وكلما حدث ذلك اتصف كلاهما بالجدية. لم تكن سحنة الكهل المثقفة الراقية تبوح بأي شيء سوى بانفعال داخلي، بينما كان في عيني «تادسيو» بحث واستقصاء وفي مشيته تردد وتلكؤ. كان ينظر إلى الأرض ثم يرفع نظره برقة إلى الأعلى، وعندما كان يتجاوز الكهل يظهر في هيئته تعبير عن شيء ما يدل على أن تربيته منعته من الاستدارة للوراء.

مرة، وفي إحدى الأمسيات، حدث شيء مختلف، فقد غاب الأخوة البولونيون عن الجلوس مع المربية إلى مائدة الطعام. اكتشف آشنباخ ذلك بقلق، فخرج بعد العشاء مفكراً في مصيرهم ومتمشياً ببذلته المسائية وقبعته القشية أمام الفندق أسفل الشرفة. فجأة رأى الأخوات اللواتي يشبهن الراهبات مع مربيتهن وخلفهن بأربع خطوات ظهر

«تادسيو» في ضوء المصابيح المقوّسة. كان واضحاً أنهم جاؤوا من رصيف القوارب البخارية، وأنهم لسبب أو لآخر قد تناولوا الطعام في المدينة. كان الطقس بارداً على الماء وكان «تادسيو» يرتدي معطف بحارة كحلياً بأزرار ذهبية وطاقية مناسبة على الرأس. لم يكن قد احترق بالشمس وهواء البحر بل ظل جلده مرمرياً مصفراً كما كان في البداية، لكنه بدا اليوم شاحباً أكثر من ذي قبل ربما بسبب البرودة أو بتأثير الضوء الباهت الساقط عبر المصابيح الشبيه بضوء القمر. وهكذا ارتسم حاجباه المستقيمان بحدة أكثر من المعتاد وبدت عيناه أكثر اعتاماً وأعمق. بدا أجمل مما يوصف بالكلام. وأحس آشنباخ، كما في مرات عديدة سابقة، بالألم لأن الكلمة قادرة على الاحتفال بالجمال ولكنها عاجزة عن التعبير عنه.

لم تكن رؤية الغالي «تادسيو» متوقعة، بل جاءت مباغتة ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لرسم ردة فعل هادئة ووقورة على سحنته. تظاهر بالفرح والمفاجأة والإعجاب لحظةَ التقت نظرته بمن يشتاق إليه. وحدث في تلك اللحظة أن ابتسم «تادسيو»، ابتسم له ابتسامة ناطقة واثقة فاتنة صريحة بشفتين انفتحتا ببطء أثناءها. كانت ابتسامة نرسيس الذي انحنى فوق سطح الماء العاكس لصورته، عميقة ساحرة جذابة، فامتد ذراعاه إلى صورة جماله الخاص ـ كانت ابتسامة مشوشة قليلاً بسبب فشل محاولته تقبيل شفتي صورته المغريتين ـ ابتسامة مفعمة

دلالاً وفضولاً وألماً خفيفاً مفتوناً وفاتناً. أما ذلك الذي استقبل الابتسامة فقد اختطفها كهدية رماها له القدر. كان مضطرباً جداً بحيث اضطر إلى الهروب من نور الشرفة وواجهة الحديقة والبحث بخطوات متعجلة عن الظلام خلف الحديقة. وقد هاجمته توبيخات أوهنته رغم رقتها:

«لا يجوز لك أن تبتسم هكذا!».

«اسمع لا يجوز أن يبتسم المرء هكذا لأي شخص كان». ورمى بنفسه على أحد المقاعد وتنفس بجهد رائحة النباتات الليلية. استند إلى الخلف بذراعين متدليتين مهزوماً والعرق يتصبب منه وراح يهمس بكلمات من الشوق والرغبة الخالدة، المستحيلة في ذلك الوضع، العبثية، السافلة، المُضحكة، المقدسة رغم كل شيء، والجديرة بالاحترام أيضاً: «أحبك...».

5

أبدى غوستاف فون آشنباخ خلال الأسبوع الرابع من إقامته في الليدو عدة ملاحظات مقلقة متعلقة بالعالم الخارجي، وظهر له أولاً أن حركة التردد على الفندق تنقص مع اقتراب الموسم بدلاً من أن تزيد، وأن اللغة الألمانية حوله تخف وتتلاشى، بحيث أن أذنيه لم تعودا تستقبلان، وهو قاعد على طاولته على الشاطئ، سوى أصوات أجنبية. وفي أحد الأيام وردت عند الحلاق، الذي تكاثرت الآن زياراته إليه، كلمة من حديث سببت له الدهشة. كان الرجل يتحدث عن عائلة ألمانية، غادرت الفندق بعد إقامة قصيرة، وأضاف مثرثراً ومتملقاً: «ولكنك ستبقى هنا يا سيدي، فأنت لا تخاف من الوباء»، فحدق آشنباخ في الحلاق يسأله: «الوباء؟». صمت الثرثار وتظاهر بالعمل متجاهلاً السؤال الذي تكرر بإلحاح حتى أجاب بأنه لايعرف عنه شيئاً، وانتقل بمهارة للحديث عن مواضيع أخرى.

كان ذلك ظهراً، وبعد الظهر سافر آشنباخ مع سكون الريح وشدة إحراق الشمس إلى البندقية، مدفوعاً بولع اللحاق بالأخوة البولونيات اللواتي رآهن مع مربيتهن

يسلكن الطريق إلى جسر القوارب البخارية العائم. لكنه لم يجد معبودة في سان ماركو، وعندما جلس إلى طاولته المدورة الحديدية يشرب الشاي تحت الفيء في ذات المكان، شمّ فجأة نكهة رائحة خاصة، بدا له الآن أنها تلامس منذ أيام إحساسه دون أن تدخل إلى وعيه. إنها رائحة حلوة كالتي تصدر عن المستوصف وتُذكّر بالبؤس والجراح وانعدام النظافة. حللها وتحقق منها وهو يتأمل وينهي فنجانه ويغادر المكان على الجانب المقابل للمعبد. اشتدت الرائحة في الدرب الضيق ووجد على زوايا الشوارع إعلانات مطبوعة ومثبتة يُحذَر فيها الناس من انتشار أمراض معينة ناجمة عن الطقس في الجهاز الهضمي، وتطلب منهم إدارة المدينة عدم تناول المحارات والحلزونات والابتعاد عن مياه القنوات، وقد صيغ هذا التحذير بلهجة منمقة واضحة. وقفت مجموعات صامتة على الجسور وفي الساحات ووقف الغريب متوجساً قلقاً بينهم.

توجّه بالسؤال من صاحب مخزن استند إلى الباب بين سلاسل مرجانية وحلي مكونة من أحجار كريمة مزيفة، عن هذه الرائحة الكريهة. فتفحصه الرجل بعينين ثقيلتين واندفع يجيب ممثلاً بالإيماء: «هذه خطة وقائية يا سيدي، صدرت بقرار من الشرطة وعلى المرء أن يصدقها ويقبلها. إن هذا الطقس ضاغط ورياح «السيروكو» معروفة وضارة بالصحة، باختصار أنت تفهم ـ ربما هي من باب الحذر

المبالغ فيه». فشكره آشنباخ وتابع سيره. شمّ أيضاً على القارب البخاري العائد إلى الليدو الرائحة ذاتها.

بعد أن وصل الفندق اتجه فوراً إلى طاولة الصحف في الصالة وراح يتصفح الجرائد، ولم يجد في الأجنبية منها أي شيء أما المحلية فقد تحدثت عن إشاعات ونشرت أرقاماً متباينة وتصريحات رسمية بالنفي مع التشكيك في صحتها. وهكذا اتضح سبب رحيل العنصر الألماني والنمساوي، ولعل المنتمين إلى بلدان أخرى لم يعلموا بشيء ولم يعرفوا أي شيء، ولم يعترهم القلق. فكر آشنباخ متوتراً: «الصمت أفضل!»، ورمى الصحف على الطاولة وتابع لنفسه: «على المرء أن يستعين بالكتمان!»، وقد ملأ قلبه الرضا عن المغامرة التي انخرط فيها العالم الخارجي. لأن الشغف كالجريمة لا يتوافق مع النظام الآمن ومسيرة الحياة العادية، وأي انحلال في نسيج المجتمع وكل ما يأتي به العالم من فوضى وبلاء يلقى ترحيب ذلك الانفعال لأنه يأمل منه مكسباً له بلا تحديد. وهكذا تحول إحساس آشنباخ إلى رضا مُبهم عن الأحداث المُقنّعة والتي تجري في أزقة البندقية القذرة. إن هذا العاشق لا يهمه شيء سوى إمكان سفر «تادسيو» وقد اعترف بكثير من الفزع بأنه سيكون عاجزاً عن الحياة إذا حصل ذلك.

في الفترة الأخيرة لم يعد يكتفي شاكراً بنظرة يلقيها عن قرب إلى الجميل. لقد صار يلحق به ويكمن له، وأيام الأحد مثلاً لم يظهر البولونيون أبداً على الشاطئ. خمن أنهم يذهبون لسماع القداس في سان ماركو فأسرع إلى هناك،

وما أن انتقل من قيظ الساحة إلى الفيء الذهبي داخل الحرم المقدس حتى وجد المطلوب منحنياً على إحدى المنصات يؤدي الصلاة. ثم وقف في الخلفية على أرض من الفسيفساء المتشققة وسط الحشد الساجد الذي يتمتم وينحني ويصالب وقد أثقلت على حواسة تلك الأبهة التي أقحمتها جلالة المعبد الشرقي وقدسيته. وفي الصدارة كان الكاهن المثقل بزينة ثمينة يروح ويجيء مؤدياً الحركات الطقسية ويغني، بينما البخور يفور ويغطي بضبابه شعلات شموع المحراب الواهنة. وبدا أن رائحة أخرى اختلطت برائحة المذبح الرطبة اللطيفة ليعي رائحة المدينة الموبوءة. لكن آشنباخ رأى عبر الضباب والبريق أن الجميل يدير رأسه إلى الخلف ويبحث عنه ثم ينظر إليه.

عندما تدافع حشد الناس الخارجين عبر البوابات المفتوحة إلى الساحة التي ازدحمت بأسراب الحمام، اختبأ العاشق المتيّم في الدهليز كامناً متربصاً، ورأى البولونيين يغادرون الكنيسة وبدأ الإخوة يودعون الأم بطريقة طقوسية وهي تستدير إلى قاربها ذي المحرك عائدة إلى المنزل. اكتشف أن الجميل مع أخواته المترهّبات والمربية قد سلكوا الطريق الأيمن عبر بوابة برج الساعة باتجاه سوق القماش. وبعد أن سبقهم بمسافة راح يتبعهم خفية في نزهتهم عبر البندقية، وكانوا إذا توقفوا عن السير لجأ للاختفاء في مدخل أو فسحة بين الأبنية وترك المشاة العائدين يتجاوزونه. لكنه فقدهم وبحث عنهم بإصرار وإرهاق على الجسور وفي الأزقة القذرة المغلقة، وعانى دقائق من

العذاب القاتل كلما دخل في ممر ضيق لم يستطع الخروج منه حتى يراهم فجأة قادمين نحوه. بعد ذلك لم يعد ممكناً القول إنه يتألم، لأن رأسه وقلبه انتشيا من السكرة وخطواته اتّبعت أوامر الشيطان الذي يشتهي أن يطأ عقل الإنسان وكرامته تحت قدميه.

في مكان ما ركب «تادسيو» ومرافقاته جندولاً. أما آشنباخ الذي احتمى بنتوء أحد الأبنية ثم خلف سور بئر يراقب ركوبهم، فقد فعل الشئ نفسه بعد أن غادروا الضفة بفترة قصيرة، وخاطب مجذّف الجندول باستعجال مكبوت وكلمات متدافعة ووعده بتقشيش كبير إذا هو استطاع إدراك ذلك الجندول الذي ينعطف عند الزاوية هناك والبقاء على مسافة قريبة منه دون أن يلفت الأنظار. وقد أثلج صدره تأكيد الرجل استعداده الطائش الصادر عن عامل موسمي بأنه سيحقق له ما يطلب بإخلاص.

هكذا راح ينزلق ويهتز متكئاً على مخدات سوداء طرية يلحق تلك الإوزة السابحة الأخرى ذات البوز الأسود، وقد شدته العاطفة المتوقدة إلى ما تتركه على الماء من آثار. كانت تختفي أحياناً فيحس بالهم والبؤس، لكن سائقه الذي بدا متمرساً في مهمات كهذه، استطاع بمناوراته واختصاراته للمسافات أن يجعل المحبوب يظهر للعيان من جديد. هدأ الهواء وصارت له رائحة ونفذ حريق الشمس عبر الغمام الذي لوّن السماء بالإردواز. وضرب الماء بخريره جدران الخشب والحجر. صدر عن سائق الجندول نداء تحية وتحذير، جاء جوابه من بعيد عبر سكون المتاهة في توافق نادر. كانت تتدلى من الحدائق الصغيرة المرتفعة

عالياً مساكب ورد أبيض وأرجواني تفوح منها رائحة اللون وتتهالك على جدران مهترئة، وانعكست إطارات الشبابيك المزخرفة داخل المنظر العكر ونزلت درجات المرمر المؤدية إلى كنيسةٍ في الماء. قعد شحاذٌ القرفصاء عليها يؤكد فقره وحاجته ويمد قبعته أمامه مظهراً بياض عينيه كما لو أنه أعمى، وراح تاجر أثريات واقف أمام متجرة يدعو المارة، مكشراً وجهه ومتذللاً، إلى التوقف على أمل أن يخدعهم ببيع شيء من عنده. هذه المدينة العاهرة نصفها أسطورة ونصفها مصيدة للغرباء. في هوائها العَفِن ترعرع في الماضي الفن ونما بغزارة، وهي من أعطت الموسيقيين ألحاناً ذات سحرٍ شهواني ما زالت تهز المشاعر وتهدهد العشاق. أحس المغامر أن عينيه ترتويان من هذه الفخامة وأن أذنيه تطربان لتلك الألحان، وتذكر أيضاً أن المدينة مريضة وأن مرضها يظل سراً لأسباب تتعلق بكسب المال، فراح يتقصى دون وازع عن مكان الجندول أمام ناظريه.

هكذا لم يعلم هذا الرجل ولم يرد شيئاً غير اللحاق بالموضوع الذي ألهب مشاعره بلا هوادة، أن يحلم به عندما يغيب ويهمس مخاطباً رسْمَ صورةِ خياله ببضع كلمات رقيقة كما يفعل العشاق، واستطاعت الوحدة في بيئة غريبة، ونشوة متأخرة وعميقة، منحه القوة والإرادة كي يسمح للشعور الأكثر شذوذاً وغرابة بأن يخترقه بلا خجل ولا وجل. بعد ذلك عاد في وقت متأخر من المساء قادماً من قلب البندقية وتوقف في الطابق الأول من الفندق أمام باب غرفة الجميل، وأسند جبهته الثملة جداً فلاصقت شق الباب

المغلق، وظل فترة طويلة غير قادر على أن يفصلها عنه رغم وجود خطر اكتشافه والإمساك به في هذه الحالة الجنونية.

لكن حالته هذه لم تخل من لحظات تماسك داخلي واستعادة رشد. راح يبحث فيها بيأس عن الطريق التي سيسلكها. إنه مثل أي رجل تحققت له مكاسب طبيعية تنسجم مع أصله واهتمامه الأرستقراطي، واعتاد من خلال الإنجازات والنجاحات التي أحرزها في حياته أن يفكر بأسلافه، ويتأكد على موافقتهم ورضاهم وأن يضمن استمرار احترامهم له كضرورة روحية. فكر بهم الآن هنا وهو متورط في مغامرة غير مسموح بها وأسيراً لأحاسيس متطرفة شاذة، وفكر بالصرامة الشديدة والأخلاقية الرجولية في طبيعتهم البشرية وارتسمت على شفتيه ابتسامة كئيبة. ماذا كانوا سيقولون؟ بل ماذا كانوا سيقولون عن حياته كلها التي انحرفت عن حياتهم حتى الانحطاط؟ عن حياته هذه في جحيم الفن التي كان هو نفسه قد وصفها من وجهة نظر شبابية ساخرة مخلصة لتراث آبائه البرجوازي، وكانت في الواقع شبيهة بحياتهم! لقد أدى الخدمة العسكرية وكان جندياً ومحارباً مثل العديد منهم. ألم يكن الفن حرباً، صراعاً ذا احتكاك مباشر، لا يقوى المرء اليوم على خوضه طويلاً. إنه حياة السيطرة على النفس وإنكار الذات، حياة كالحة مستقرة على التقشف، جعل منها رمزاً لبطولة مرهفة متلائمة مع عصرنا، أسماها حيناً رجولة وأحياناً شجاعة وبدا أنه صار بها

واحداً من ذوي العظمة والقدرة على تكييف حياة كهذه بطريقة ما حسب هواه. ألم يحظ هذا الشكل من الحب لدى أشجع الشعوب بمكانة محترمة، ألم يقل البعض أن مدنهم ازدهرت بجرأته؟ لقد خضع عدد كبير من أبطال الحروب الأقدمين بإرادتهم للنير الذي وضعه هذا الحب في رقابهم، فليس ثمة إهانة فيما يأمر به إيروس. أما الأفعال التي تُعد علامات للجبن كالاسترحام والتذلل للغير وحلف اليمين والاستعباد لهذا الحب، هذه المقاصد كلها لا تهبط بالمحب إلى مستوى العار، بل تُكسبه على العكس جملةً من المدائح والإطراءات.

هكذا كانت طريقة تفكير الرجل المفتون التي بحث فيها عن صيانة كرامته. وانصرف في الوقت نفسه للاهتمام الدائم المتقصي والخاص بالأحداث القذرة التي تجري في وسط مدينة البندقية، وبكل مغامرة في العالم المحيط به تتفاعل سراً مع مغامرة قلبه وتقترب من انفعاله بآمال مبهمة وفوضوية. صار مهووساً باكتشاف كل جديد ومؤكد حول موقع وجود وانتشار الوباء، يتفحص في مقاهي المدينة الصحف الألمانية التي اختفت منذ أيام من فوق طاولة القراء في صالة الفندق. وقد تناوبت فيها الادعاءات وتصريحات النفي وتبدلت أعداد المصابين وحالات الوفاة من عشرين إلى أربعين ثم إلى مائة وأكثر. وبعد ذلك صار ظهور أي من الإصابات الجديدة غير المعروفة هنا يُعزى إلى حالات إفرادية متسللة من خارج

المدينة. أما الاحتجاجات التحذيرية والاعتراضات على اللعبة الخطرة التي تمارسها سلطة الحكومة في روما فقد ذهبت سدى. ولم يتم الحصول على أية معلومات مؤكدة.

مع هذا كان الرجل المتوحد واثقاً من حقه الخاص بالمشاركة في هذا السرّ المجهول، ووجد ارتياحاً غريباً تمثلَ في استجواب العارفين بأسئلة مفخخة وإجبار أولئك الملتزمين بالصمت على التفوه بكذب واضح، ومرة حاصر في صالة الطعام أثناء الفطور، مدير الفندق بالأسئلة، وهو رجل قصير هادئ يرتدي حلّته الفرنسية ويتجول مشرفاً ببشاشة على الخدمة بين متناولي الطعام، ويتوقف أيضاً عند طاولة آشنباخ الصغيرة لبعض الحديث. فسأله الزبون بلامبالاة: «لماذا بحق السماء يهتمون منذ حين بتطهير البندقية؟»، فأجاب المتسلل: «إنها فقط مسألة تدبير قامت به الشرطة بخصوص مكافحة أية أعراض غير مقبولة تهدد الصحة العامة بالأذى والأضرار وتنجم عن الطقس المُشبَع بحرارة استثنائية متربصة. هذا واجب لا بد من أدائه في الوقت المناسب». أجاب آشنباخ: «إنه إجراء شرطة يستحق التقدير». وبعد تبادل بعض الملاحظات المتعلقة بالطقس استأذن المدير وانصرف.

في اليوم نفسه مساءً حدث أن ظهرت فرقة صغيرة من المغنين المتجولين قادمة من المدينة وراحت تغني في الحديقة أمام الفندق. وقف أفرادها وهم رجلان وامرأتان إلى عمود حديدي يحمل مصباحاً مقوساً واتجهوا

بوجوههم المدهونة بالأبيض إلى الشرفة الكبيرة فوق، حيث جلس المستجمّون يشربون القهوة والسوائل الباردة ويستمعون إلى عروض الفرقة الشعبية بإعجاب. وقد وقف العاملون في الفندق وهم عمال المصاعد والنُدُل والمستخدمون المكتبيون ملاصقين لأبواب الصالة في وضع الإصغاء. أما العائلة الروسية فقد هرعت كعادتها في الحرص والاستمتاع إلى طلب مقاعد مقششة وُضعت لها في الحديقة كي تكون قريبة من المغنين، وجلس السادة أفرادها على شكل نصف دائرة ووقفت خلفهم عبدتهم العجوز. استخدم الفنانون المتسولون آلة مندولين وغيتاراً وهارمونيكا وآلة غليظة الأوتار تشبه الكمان. وقد غيروا فقرات الغناء بتغيير الآلات وكانت الصغرى بين المرأتين ذات صوت حاد رنان تغني مع الشاب صاحب الصوت التينوري ثنائية حب لاهب. لكن الموهبة الفعلية ظهرت بوضوح لدى نجم الفرقة الرجل الثاني عازف الغيتار الذي عزف نوعاً من الباريتون - الباص بصوت عميق لا يكاد يُسمع وعبّر بالإيماء المتقن عن طاقة كوميدية لافتة. وكثيراً ما فصل نفسه عن الفرقة حاملاً آلته الموسيقية الكبيرة، واندفع منهمكاً إلى جمهور الشرفة الذي كافأ حركاته ومقالبه اللطيفة بضحك عالٍ مرح. وقد ظهرت العائلة الروسية في الأرضية مذهولة لرؤية هذا الكم من الحيوية المتوسطية، التي قام بها الرجل، وشجعته بالتصفيق والهتافات على أن يعرض المزيد والأكثر جرأة منها.

كان آشنباخ جالساً إلى سور الشرفة يبلل شفتيه بين حين وآخر بمشروبٍ مزيج من عصير الرمان والصودا يلمع في كأس أمامه بلون الياقوت الأحمر، وقد تقبلت أعصابه الأنغام المهدهدة والألحان السوقية بتعطش ورغبة. لأن الشغف يشل الحاسة النقدية ويخضع جاداً للإثارات والمُتع التي قد تتقبلها النفس في حال يقظتها، لأسباب إنسانية أو ترفضها بعناد. كانت أساريره متوثبة نتيجة القفزات التي قام بها المشعوذ وتحولت إلى ابتسامة أليمة، فقعد متثاقلاً بينما هاج داخله متنبهاً بأعلى درجات الاهتمام لأن «تادسيو» وقف على بُعد خمس خطوات مستنداً إلى السور الحجري.

كان يقف ببذلته البيضاء المزنّرة، التي يرتديها أحياناً لتناول وجبة الطعام الرئيسية، ويتفرج على المغنين الجوالين بنظرة لا تشبه الابتسامة إلا قليلاً وتعبّر فقط عن فضول بارد وقد بدا شكله ظريفاً ولائقاً ومهذباً بلا تكلف. كان متكئاً بذراعه الأيسر على السور ومصالباً قدميه وواضعاً يده اليمنى على ردفه، وكان ينتصب أحياناً في وقفته وينفخ صدره، ثم يستخدم ذراعه بحركة جميلة في إنزال أطراف قميصه الأبيض عبر الزنار الجلدي إلى الأسفل. وأحياناً أخرى يتلفت حوله متردداً حذراً أو بحركة مفاجئة محركاً رأسه حول كتفه الأيسر باتجاه مكان المُحِب الكهل الذي كان يرصد ذلك كله منتصراً ومنتشياً ومهلوعاً أيضاً. بدت عيناه غير مرئيتين من جانب

«تادسيو»، لأن خوفاً مذلاً انتابهما أرغم المشدوه على توجيههما ثابتتين إلى السور، وقد جلست في خلفية الشرفة النساء اللواتي يقمن بحماية «تادسيو». ولذا خشي العاشق أن يلفت أنظارهن أو يساورهن فيه شك، إذ سبق أن لاحظ مراراً بنوع من الذعر، وكان إما على الشاطئ أو في صالة الفندق أو في ساحة سان ماركو، أنهن ينادين «تادسيو» إذا كان قريباً منه ويطلبن الابتعاد عنه، ما توجب تفسيره إهانة رهيبة عانى منها كبرياؤه عذاباً غير مسبوق ومنعه وعيه من إبعادها عنه.

أثناء ذلك كان صاحب الغيتار قد بدأ يعزف منفرداً أغنية شعبية متعددةِ القرارات الصوتية ورائجة في جميع أنحاء إيطاليا، وكان التداخل عليها يأتي من أعضاء الفرقة في كل مرة بالغناء أو بالآلات وهو يقوم بأدائها وفق حسٍ ورونقٍ درامي آخاذين. لقد وقف، بجسمه النحيل وسحنته المرهقة منفصلاً عن رفاقه يكسو رأسه ونقرته بطاقية من اللباد الأجرب برزت من حافتها خصلة من شعره الأصهب، وقف بجرأة وقحة فوق الحصى وأرسل من فمه مع الضرب على الأوتار غناءً وجّهه مازحاً بافتعال للشرفة فوق، بحيث أن شرايين جبينه انتفخت بسبب ما يبذله من جهد. وظهر أنه ليس من سكان البندقية الأصليين بل ربما أحد المهرجين أو أنصاف القوادين من العرق النابوليتاني، وبدا فظاً ومتهوراً وخطِراً ومسلياً في آن معاً. أما أغنيته فكانت مجرد ترديد ألفاظ ساذجة حسب الأنغام، واكتسبت في فمه،

بفضل ألعابه الإيمائية وحركات جسمه وطريقته في الإشارة والغمز واللمز ومدّ لسانه إلى زاويتي فمه بطريقةٍ شهوانية، دلالات مزدوجة المعنى ومسيئة للذوق. كانت قبة قميصه الرياضي، الذي ارتداه تحت بذلته الرسمية، قد أحاطت عنقه النحيف وانتفخت معها حنجرته العارية الكبيرة بشكل لافت. أما وجهه الشاحب ذو الأنف الأفطس الذي يصعب من خلال قسماته تحديد عمره، فقد بدا متجهماً مثقلاً بالهموم، ومن الطرافة أن الأخدودين المسيطرين بوحشية على ما بين حاجبيه الأصهبين يتلاءمان تماماً مع تكشيرة فمه المتحرك بلا انقطاع. وكان ما لفت انتباه الكهل المتوحد هنا لهذا الرجل هو ملاحظة أن شكله المثير للشك أثار حوله أيضاً جواً مثيراً للشك. فكل مرة يعود فيها جواب قرار الأغنية يقوم المغني بإيماءات مصافحة وشعوذه وبخطوات عسكرية شاذة تقوده مباشرة إلى مكان قعود آشنباخ حيث تصدر عن ثيابه وجسمه نفثة قوية من رائحة فينول تصعد إلى الشرفة.

عمد الرجل بعد انتهاء فقرته إلى جمع الأُعطيات وبدأ عند الروس الذين شوهدوا يتبرعون بأريحية، ثم صعد الدرجات إلى الشرفة، وعلى عكس ما كان عليه أثناء تقديم عرضه الفني من وقاحة وخبث، بدا الآن منهاراً مقوس الظهر كالقطة يمشي مجروراً بقدمين متثاقلتين بين الطاولات، كاشفاً بابتسامة تذلل غامض عن أسنانه القوية، بينما ظل الأخدودان بين حاجبيه مقطبين بما

يشبه التهديد. تفحص الناس بفضول هذا المخلوق الغريب الذي يجمع قوت يومه، ورمقه البعض بنظرة احتقار وألقى البعض نقوداً بأطراف أصابعهم في طاقيته متجنباً ملامستها. وقد سبب رفع الحاجز الجسدي بين الممثل الكوميدي والناس المحترمين نوعاً من الارتباك جعل متعة الفرجة أكبر. شعر الرجل بذلك وحاول تغطيته بالتكشير معتذراً، وجاء إلى آشنباخ ومعه الرائحة التي لا يبدو أن أحداً هنا وهناك حاول التفكير في ماهيتها.

قال الرجل المتوحد للمهرج بهدوء روتيني: «اسمع. إنهم يقومون بتطهير البندقية. لماذا؟»، فأجاب المهرج بصوت مبحوح: «من أجل الشرطة... إنه أمر رسمي ياسيدي. في حرارة مرتفعة كهذه إنه السيروكو الذي يضغط وهو طقس حار جداً ورطب لا تطيق صحة البشر احتماله». كان يتحدث كالمدهوش لأن أحداً يسأله عن ذلك وجسّد بيده المبسوطة مدى الضغط الذي يمارسه السيروكو، فسأله آشنباخ هامساً متكلماً من بين أسنانه: «ليس هناك إذن أي وباء في البندقية؟». تشكلت عضلات وجه المهرج إلى تجهم يائس غريب: «وباء؟ وأي وباء هذا. هل يعد طقس السيروكو وباءً؟ وهل شرطتنا وباء؟ أنت تمزح ياسيدي. ولماذا الوباء؟ إنه مجرد تدبير وقائي، هل تفهم؟ إنها تعليمات الشرطة من أجل تجنب تأثيرات الطقس المتوقع العاصف». وراح يقوم بإشارات توضيحية فقال له آشنباخ باختصار وصوت منخفض: «لابأس لابأس» وألقى في

الطاقية مسرعاً بقطعٍ نقدية كثيرة غير عادية. ثم غمز للرجل بعينيه أن ينصرف، فأطاعه الرجل مكشراً مع انحناءات عديدة متوالية، لكنه لم يكد يصل الدرج حتى دهمه مستخدمان من الفندق وأحاط وجهاهما بوجهه وبدءا معه على الفور استجواباً غير مسموع. راح يهز كتفيه ويُطمْئن ويقسم إنه لزم الصمت فصدقاه وتركاه يعود إلى الحديقة، حيث بدأ بعد مشاورة رفاقه ومعهم تحت مصباح العمود المقوس بغناء أنشودة الوداع.

كانت أغنية لا يذكر الرجل المتوحد أنه سمعها من قبل. فهي تتألف من طقطوقة ثلاثية بلهجة عامية غير مفهومة مزودة بجواب من القهقهة الصاخبة التي تغرق فيها الفرقة بانتظام وتصدر من أعماق حناجرها ويتوقف معها الكلام ومرافقة الآلات ولا يبقى مسموعاً سوى ضحك إيقاعي منتظم بشكل ما وكأنه طبيعي جداً. استطاع العازف المنفرد بموهبة عظيمة أن يعرضه بحيوية بدت واقعية، وأن يستعيد بعد أن صار بعيداً قليلاً عن الجمهور، وقاحته الكاملة ويرسل ضحكاته الغنية بلا خجل إلى الشرفة المرتفعة وكانت ضحكات ساخرة. وظهر أنه مع نهاية الجزء المنطوق من القرار يصارع دغدغة تثير الضحك لايمكن مقاومتها، كان يشهق ويتهدج صوته ويضغط بيده على فمه ويرفع كتفيه، وفي اللحظة المحددة ينهار ويبكي ويفجر بقايا الضحك بصعوبة من داخله. وقد استطاع بهذه الواقعية المؤثرة إقناع مستمعيه بأن على الشرفة أيضا جواً حياً من

صفاء الذهن التلقائي الشامل. وهذا ما ضاعف تهور المغني وهياجه، فثنى ركبتيه وضرب فخذيه وتمسك بجانبيه محاولاً أن يفرغ ما بنفسه. لم يعد يضحك بل راح يقهقه ويشير بإصبعه إلى الأعلى كما لو أن السادة الضاحكين فوق هم أكثر الأشياء مدعاة للضحك، وضحك بالفعل كل من في الحديقة وعلى الشرفة، وكذلك النُدُل وصبيان المصاعد والخدم أمام الأبواب.

ما عاد آشنباخ يستطيع الاسترخاء على كرسيه، فجلس متأهباً كمن يستعد للدفاع أو الهروب، لكن القهقهات ورائحة المستشفى الصاعدة نحوه ووجود الجميل قريباً منه نسجت حوله فخٍ وهمي لا يمكن تمزيقه أو الخلاص منه أحاط برأسه وبإحساسه. وأثناء تحرك الناس وتبعثرهم، تجرأ على النظر إلى «تادسيو» فلاحظ فوراً أن الجميل، لحظة استجابته لنظرته، ظل جاداً، كما لو أنه يكيف تصرفه وسحنته مع تصرف الآخر وسحنته، وأن الجو العام المسيطر هنا لا يهمه طالما يتهرب منه الآخر. وقد جرّدت هذه الاستجابة الطفولية التلقائية الكهل من سلاحه وسيطرت عليه تماماً بحيث بذل جهداً في دفن وجهه بين كفيه. كان قد تخيّل سابقاً أن وقوف «تادسيو» أحياناً، وشهيقه وزفيره الثقيلين، دلالة على ضيق في صدره، وأنه مريض لايُحتمل أن يعيش طويلاً. فكر في ذلك الآن مجدداً وبموضوعية تساوى معها على التوالي ويا للعجب، إحساسه بالشوق ثم بنشوة الهوى. وملأت قلبه باهتمام صرف وفرحٍ فاجر.

كانت الفرقة الڤينيسية قد أنهت عرضها وانسحبت مودعة بتصفيق سمح لقائدها أن ينتهز الفرصة فزخرف انسحابه بحركات مضحكة، سواء بقدميه الزاحفتين أو بقبلات من يديه، وضاعفها مع ازدياد الضحك. وعندما خرج رفاقه تظاهر بأنه يجري إلى الوراء باتجاه عمود كهربائي يصطدم به ثم يتسلل متألماً كما يبدو وهو مقوس الظهر إلى البوابة، حيث ألقى أخيراً وفجأة قناع المهرج سيئ الحظ واستقام في وقفته، وأسرع بلياقة بدنية يواجه الزبائن على الشرفة، ويمد لهم بوقاحة لسانه ثم يختفي في الظلمة. تفرقت مجموعة المستجمّين ولم يعد «تادسيو» واقفاً بجوار السور منذ وقت طويل. لكن الكهل المتوحد ظل قاعداً فترة من الزمن إلى طاولته الصغيرة وعليها بقية شراب الرمان، ما أثار استغراب النُدُل. وتقدم الليل وسقط الزمن. كانت في بيت أهله قبل سنوات طويلة ساعة رملية، ورأى فجأة الآن ذلك الجهاز الهام على هشاشته، وكأنه ماثل أمام ناظريه. فقد كان الرمل بلون الصدأ يجري ناعماً بلا صوت عبر العنق الزجاجي ويملأ التجويف العلوي حتى يميل به مُشكلاً إعصاراً صغيراً جامحاً.

قام الرجل العنيد بعد ظهر اليوم التالي بمسعى جديد لمعرفة ما يجري في البندقية، ونجحت التجربة ما أمكن لها ذلك. لقد دخل في ساحة سان ماركو إلى مكتب سياحي يديره إنكليز يقع هناك، وبعد أن صرف من موظف الصندوق بعض النقود وجّه بسحنة الأجنبي غير الواثق سؤاله المقيت إلى الموظف، وكان بريطانياً كامل اللباس

وشاباً ذا شعر مفروق في وسط رأسه وعينين متقاربتين وهيئة تنضح بالولاء للنظام والقانون، وتبدو غريبة مدهشة في الجنوب الذي تحكمه الشطارة والتحايل. بادره قائلاً:

«لا داعي للقلق سيدي، مجرد إجراء بلا أهمية جدّية، إنها عادةً إجراءات تُتخذ في كثير من الأحيان للوقاية من أية تأثيرات تضر بالصحة وتنجم عن حرارة السيروكو المرتفعة». وعندما فتح عينيه الزرقاوين واجه نظرة الأجنبي المرهقة الحزينة الموجهة إلى شفتيه ببعض الازدراء. احمرَّ وجه الإنكليزي، وأضاف بصوت منخفض وبحركة خفيفة: «هذا هو التوضيح الرسمي الذي يتوجب على المرء هنا اعتماده واستحسانه، وسأقول لك إن شيئاً آخر يختفي خلفه». وتابع حديثه بلغة نزيهة ومريحة فقال الحقيقة.

6

كانت الكوليرا الآسيوية تميل بشدة، ومنذ سنوات عديدة طويلة، إلى التوسع والانتشار، وانطلاقاً من مستنقعات دلتا الغانج الحارة صعد وباء الارتشاح الإنتاني إلى خلايا الأنسجة البشرية، واكتسح مناطق بدائية قاحلة غير مأهولة في الجزيرة كانت النمور تحوم فيها بين أدغال البامبو متربصة بفرائسها، ودهم الوباء بالحمى الشديدة غير العادية وباستمرار منطقه الهند بكاملها، ثم اتجه شرقاً إلى الصين وغرباً إلى أفغانستان وإيران متبعاً خط سير القوافل يسبقه الرعب منه إلى أستراخان ثم إلى موسكو. وبينما كانت أوروبا ترتجف خوفاً من أن يصل شبح الوباء إليها حدث أن حمله تجار سوريون عن طريق البحر، وظهر في الوقت نفسه تقريباً في عدد من موانئ البحر المتوسط. فرفع رأسه في طولون ومالاغا، وأظهر قناعه في باليرمو ونابولي عدة مرات، وبدا أنه استقر في منطقتي كالابرين وأبولين، أما شمال شبه الجزيرة فقد ظل مصوناً. ولكن في منتصف شهر أيار من هذه السنة اكتُشفت في البندقية في يوم واحد جثتان موبوءتان ومحفوظتان ومسودّتان، تعود

إحداهما إلى عبدٍ بحار والثانية إلى بائعة متجولة وقد تم التعتيم على هذين الحادثين، وبعد أسبوع تصاعد الرقم إلى عشرة ثم إلى عشرين وثلاثين في مواقع مختلفة، ومات رجل جاء من الريف النمساوي ليستجم عدة أيام في البندقية فأعيد إلى مسقط رأسه مع تفسير واحد محتمل لموته. وهكذا تسربت إشاعات غزو الوباء مدينة الأزقة المائية إلى الصحف الألمانية اليومية. وردت السلطات في البندقية بأن الظروف الصحية في المدينة لم تكن قط أفضل مما هي عليه وأنها اتخذت الإجراءات الوقائية اللازمة. ولكن بعض المواد الغذائية ربما أصيبت بالتلوث مثل الخضار واللحم أو الحليب. لأن الموت راح يفترس، متخفياً، ما حوله في الأزقة الضيقة، وكانت حرارة الصيف المبكرة الشديدة التي سخنت مياه القنوات ملائمة جداً للانتشار. وظهر أن الوباء راح يجدد قواه وأن صلابة وخصوبة مولّده قد تضاعفتا. كانت حالات الشفاء نادرة، حيث قضى ثمانون من المائة نحبهم بطريقة مرعبة لأن الوباء هاجم بوحشية بالغة وظهر بأشد حالاته خطورة وهي الحالة «الجافة» كما كانت تسمى. وفيها يعجز الجسم عن طرد الماء المرتشح بكثرة من جدران الأوعية الدموية، وما يلبث خلال ساعات قليلة أن يجف ويذوي نتيجة تحول الدم إلى معجون قطراني يرافقه تشنجات وتأوهات خشنة. يكون المرء محظوظاً لو حدث أن الكوليرا أعلنت عن نفسها بتأثير شعور خفيف بالمرض يعقبه غيبوبة عميقة يكاد لا يفيق منها.

وفي مطلع حزيران امتلأت قاعات الحجر الصحي في مستشفى «كيفيكو» وضاق المكان في دارين للأيتام، وانتشرَ رواحٌ ومجيءٌ جنائزي بين رصيف الميناء الجديد وجزيرة «سان ميشيل». كان هناك الخوف من حلول الضرر العام، والحرص على إقامة معرض الرسوم الزيتية في الحديقة العامة قريباً وعدم إلغائه أو إلغاء غيره من النشاطات، كي لا يسبب ذلك الهلع ويهدد بوقف التعامل مع الفنادق والمتاجر ومختلف المهن السياحية العديدة. وقد ظهر هذا الخوف بوضوح أقوى في المدينة على شكل ادعاء حب الحقيقة واحترام الاتفاقيات الدولية المبرمة، كذريعة مكنت السلطات من التعنت في متابعة سياسة النفي والتكذيب والتعتيم الكامل. استقال مدير الصحة من منصبه وهو رجل كفؤ، خرج لا يلوي على شيء وحل بديلاً عنه شخص أكثر انقياداً وليونة. أما الشعب فكان يعرف ذلك ويدرك أن فساد السلطة وانعدام الأمن وحالة الطوارئ بسبب الموت الذي يلف المدينة، أدت كلها إلى فساد أخلاقي معين لدى الطبقات الدنيا، وشجعت على ممارسات معادية للمجتمع والمدنية تمثلت في الفوضى والانحراف وانتشار الجريمة. وصار المرء على غير العادة يلاحظ في المساء كثيراً من السكارى، ومارست عصابات من الأشرار عمليات تهديد الأمن في الشوارع والسطو المسلح على المخازن، وتكررت جرائم القتل، وقد ثبت مرتين أن بعض الأشخاص الذين قيل إنهم سقطوا ضحايا الوباء، إنما قُتلوا بالسم على أيدي أقربائهم. تصاعد التسيب والانحلال المهني إلى

أشكال من الابتزاز والتطرف، لم تكن معروفة هنا من قبل، بل ربما وجدت في جنوب البلاد وفي الشرق فقط. وقد تحدث الإنكليزي عن هذه الأمور بصراحة، وخلص إلى القول: «تفعل خيراً بأن تسافر اليوم قبل الغد. إن إقرار الحجْر على المنطقة لن يتأخر ولن يدعك تنتظر». فأجاب آشنباخ: «شكراً لك». وغادر المكتب.

رزحت الساحة تحت رطوبةٍ حارّة بلا شمس، وبدأ بعض الأجانب غير العارفين جالسين في المقاهي أو واقفين تغطيهم تماماً أسراب الحمام أمام الكنيسة، يشاهدون هذه الطيور تهتز وتصفق بأجنحتها وتتزاحم على التقاط حبات الذرة المعروضة عليها في الأكف المقعرة. راح الرجل المتوحد يصعد ويهبط درجات بهو الكنيسة الفخمة وقد دهمته حمى الإثارة والفوز بمعرفة الحقيقة، كما ملأ فمه طعم الاشمئزاز وقلبه شعور خيالي بالرهبة والرؤى الغريبة. وراح يبحث في ذهنه عن تصرف أخلاقي منقذ. يستطيع هذا المساء بعد العشاء أن يقترب من السيدة المتزينة باللآلئ ويقول لها حرفياً بتعابيرٍ بدأ يصوغها: «سيدتي هل تسمحين لغريب مثلي أن يسدي إليك نصيحة ويخدمك بتحذير يتضمن منفعتك الخاصة قبل كل شيء؟ سافري على الفور وخذي معك «تادسيو» وبناتك. إن البندقية أصابها وباء الكوليرا...». ويمكنه بعد ذلك توديعها بملائكية ساخرة فيضع يده على رأسه ويستدير مبتعداً وناجياً بنفسه من هذا المستنقع. وأحسّ في الوقت نفسه أنه بعيد جداً عن القيام جادّاً بخطوة كهذه. إنه سوف يتقهقر ويتراجع وينشغل بنفسه، لكنّ من هو خارج نفسه لن

يخشى شيئاً أشد من خطوةٍ تعيده إليها. وتذكر بناءً أبيض مزخرفاً بكلمات متلألئة ليلاً ضاعت عين روحه في متابعة فوضى صوفيتها وتذكر أيضاً شبح المسافر الغريب، الذي يمثل الرحيل والتجوال على غير هدى، فأيقظ حنين الكهل إلى أيام الشباب وشوقه إلى البعيد والغريب. وبرزت فكرة العودة إلى الوطن الآن فردية خاصة واضحة المعالم، وعلى عكس فكرة المعاناة والبطولة التي أثارت سخطه إلى درجة أن وجهه بدأ يتقلص ويتشوه معبراً عن القرف الجسدي والنفور. همس مخاطباً نفسه: «على المرء أن يصمت». وأضاف بحدة: «وأنا سأصمت». وأسكره إدراك مشاركته بالتواطؤ كما يُسكر قليلٌ من الخمر دماغاً مرهقاً من التفكير. لقد شوشت صورة المدينة الموبوءة البائسة صفاء روحه، وألهبت فيه آمالاً غامضة تتخطى النفس وتتجاوز العقل وتفيضُ عذوبةً مخيفة. فماذا كانت تلك الغبطة اللطيفة التي حلم بها قبل لحظة بالمقارنة مع هذه الآمال؟ ما أهمية الفن والفضيلة في مواجهة مزايا الخواء؟ أخلد إلى الصمت وقرر البقاء.

دهمه في تلك الليلة حلم مرعب، إذا جاز لنا أن نسميه حلماً وكان دراما جسدية وروحية، عاشها وهو يغط في نومٍ عميق مستقلاً تماماً عن حالته المحسوسة ودون أن يرى نفسه حاضراً أو متحركاً في مسرح الأحداث، الذي كان داخلياً في نفسه. إذ جاءت تلك الأحداث من الخارج إلى الداخل فأخمدت بعنف مقاومته الروحية العميقة واجتاحت وجوده وثقافة حياته كلها وقضت عليها.

بدأ الحلم بخوف ترافقه نشوة وفضول شديد لمعرفة ما سيأتي. كان الليل مُخيماً وأحاسيسه تصغي، وجاءت من بعيد مقتربة منه أصوات حركة وصخب. خليط من الخشخشة والطنين والإرعاد المكبوت ترافقه أصوات نعيب حادة وعواء غريب ناطق بالحرف الصوتي الطويل أووو. وكل ذلك مسموع بوضوح ومغطى بحلاوة مفزعة صادرة عن عزف عميق على الفلوت يشبه الهديل ويدل على الشهوانية والسفاهة والإلحاح في تأثيره السحري على الأعضاء الداخلية في الجسم البشري. وقد عرف كلمة جاءت في العتمة أسمت ما هو آت بـ «الإله الغريب» وأضاء لهيبٌ ذو دخان كثيف اكتشف آشنباخ معه منطقة جبالٍ تشبه تلك التي أحاطت بمنزله الصيفي. وفي ضوء ممزق مبعثر قادم من غابات شاهقة عبر الأشجار وبقايا الصخور هبطت الجحافل القادمة تدور وتتحرج نحوه. بشر وحيوانات في حشود صاخبة وقطعان غطت الانحدار بالأجساد وألهبة النار والضجيج وحلقات الرقص العنيفة والمترنّحة، ونساء يتعثرن في مشيتهن بلباس الجلد الصوفي الطويل المثبت إلى خصورهن وهن يهززن بأيديهن دفوفاً بأجراس حول رؤوسهن المتراجعة متأوهةً إلى وراء أجسامهن أو مشاعل يتطاير منها الشرر أو خناجر عارية، أو أمسكن بأصابعهن أفاعٍ من وسطها تحرك ألسنتها، أو حملن نهودهن بأيديهن صارخات. ورجال ذوو قرون على الجباه مزنرون بالفرو وعراة بشكل وقح، وقد أحنوا رقابهم ورفعوا أذرعهم وأفخاذهم ليصدر عنها قعقعة سلاسل برونزية وهم

يضربون بها غاضبين على الطبول، بينما راح غلمان مُردٌ يخزون بقضبان مزينة ثيراناً يتعلقون بقرونها وينجرّون مع قفزاتها وهم يصيحون مبتهجين والآخرون الممسوسون يصرخون أيضاً بحروف صوتية ناعمة تنتهي بنداء أووو الممدود. في حلاوة ووحشية خارقتين ينتشر هذا النداء لولبياً في الأجواء كنداء الوعول في نَزْوها ثم يعود متعدد الأصوات بانتصار فظ داعياً إلى الرقص وهزّ أعضاء الجسم ولا مجال لتوقفه بأية حال. وطغى وسيطر على ذلك كله لحن عزف الفلوت العميق المحرض، فهل حرض أيضاً ذلك المغامر المقاوم على المشاركة في الاحتفال الإباحي بإلحاح، ضمن هذا الكم الذي لا يحصى من أشكال التضحية؟ كان اشمئزازه كبيراً وخوفه كذلك وكانت إرادته نزيهة شريفة في أن يحمي نفسه حتى النهاية ضد الغريب، ضد عدو الروح العزيزة المطمئنة التي تريد بأن تتمالك وتتحكم بنفسها. لكن الصراخ والصخب اللذين تضاعفا مع رجع الحائط الجبلي ازدادا به نمواً واتساعاً وانتفاخاً معاً إلى هذيان لا يقاوم.

غشيت حواسه أبخرة فيها رائحة الثيران الواخزة وعفن الأجساد اللاهثة ونفحات تشبه سطح الماء المتعفن، بالإضافة إلى رائحة أخرى معروفة هي رائحة الجروح والمرض المنتشر في الجو. راح قلبه يضرب كقرع الطبول، ودماغه يدور وغضب هائج يجتاحه، حتى غشي بصره وانتابته لذة حسية مخدّرة واشتهت نفسه الانضمام إلى حلقة الرقص الإلهية. كان شعار الحفلة الداعر صنماً

ضخماً خشبياً يزاح عنه الستار ويُرفع إلى الأعلى، وأثناء ذلك يعلو الصراخ والهتاف الطقسي بلا كابح وقد علا الزبد شفاههم ثم يتصايحون ويستفز بعضهم بعضاً بإشارات جنسية شبقة، وهم يضحكون حيناً أو يئنون ويغرز بعضهم المهاميز في لحم البعض الآخر ويلعق منها الدم. كان الكهل الحالم قد صار الآن فيهم ومعهم من أتباع الإله الغريب. نعم، لقد تجسّد نفسه في كل أولئك عندما هجموا بسكاكينهم على الحيوانات وألقوا بأنفسهم فوقها يبتلعون قطعاً من لحمها يخرج منها البخار. وفي الوقت نفسه بدأ على الأرض الرخوة المنكوشة تجمّعُ خليطٍ غير محدود يُقدَم قرباناً للإله. وهنا ذاقت نفسه طعم الفجور وعانت الهلاك.

صحا المصاب من هذا الحلم خائر الأعصاب منهاراً وقد سقط فريسة الشيطان. لم يعد يخشى نظرات الناس المتفحصة أو يهتم باتهاماتهم. فها هم يهربون ويسافرون، وها هي أكواخ الشاطئ وقد أفرغ عدد كبير منها، ودل إحصاء زبائن صالة الطعام على نقص كبير ولم يعد أحد يرى في المدينة غريباً إلا فيما ندر. بدا أن الحقيقة تسربت وأن الرعب لم يعد قادراً على الاختفاء رغم تكاتف أصحاب المصلحة في إخفائه. لكن المرأة ذات الحلي اللؤلؤية بقيت معَ مرافقيها، ربما لأن الشائعات لم تصلها بعد، أو لأنها كانت متكبرة وممتنعة على الخوف منها والرضوخ لها. لقد بقي «تادسيو» وكان ويبدو أحياناً للكهل الهادئ الرصين أن اللعنة والمنية تحل على كل ما

يزعج حياته هنا فيظل وحده مع الجميل على الجزيرة. نعم، صار كلما حطت، قبل الظهر على الشاطئ، نظراته المتثاقلة غير المسؤولة على الفتى المحبوب تبعه ذليلاً، وكلما سار عند الغروب في الأزقة التي يحوم فيها الموت الكريه خفية، تبعه ذليلاً أيضاً. وهكذا بدا له الرعب حافلاً بالآمال وبدت الأعراف والأخلاق متداعية منهارة وقد عفى عليها الزمن.

كان مثل أي عاشق يرغب في إعجاب المعشوق، ويخشى بمرارة ألا يُفلح في ذلك. أضاف إلى بذلته ما يبهجها وتزيَّن بأحجار ثمينة واستخدم العطر وخصص وقتاً عدة مرات يومياً لتجميل نفسه. جاء متبرجاً متوتراً ومثاراً إلى الطاولة. وأحس تحت ستار الشباب الحلو الذي صنعه على شكله بقرف واشمئزاز تجاه جسده الكهل وأغرقه منظر شعره الرمادي ووجهه المتغضن في الخجل واليأس. قرر تنشيط جسده وترميمه فأخذ يتردد باستمرار على حلاق الفندق، وراح وهو في غطاء الحلاقة، تحت يدي ذلك الثرثار النظيفتين مستنداً في كرسيه إلى الخلف، يتأمل بنظرة معذّبة صورته في المرآة وقال بفم معوج: «المشيب».

فأجابه الحلاق على الفور: «إنه المشيب. والسبب طبعاً إهمالٌ صغير، إنه خلل في الأشياء الخارجية، يبدو مبرراً لدى الأشخاص المهمين لكنه لا يستحق المدح وخاصة عند أشخاص كهؤلاء لايتلاءمون إلا قليلاً مع أحكام مسبقة في مسائل الطبيعي والاصطناعي. ولو أن الصرامة لدى بعض الناس ضد براعة الحلاقين، امتدَّ منطقياً إلى أسنانهم لما

أثاروا امتعاضهم منه. نحن في النهاية كبار في العمر بقدر ماتحس به أرواحنا وقلوبنا، والمشيب يعني حسب ظروفه أنَّ لا حقيقة أكثر واقعية مما يعنيه تصحيح أو ترميم ما هو غير مرغوب فيه. وفي حالتك ياسيدي يملك المرء الحق في استعادة لون شعره الطبيعي. فهل تسمحون لي بإرجاعه إليكم بكل بساطة؟».

«وكيف ذلك؟»، سأله آشنباخ.

غسل المتحدث رأس زبونه مرة بماء صاف وأخرى بماء داكن وجعله أسود كما كان في سنوات الشباب، ثم راح يثنيه بمجعدة حتى تموّج ناعماً فتراجع عنه وراح يتفحّص الرأس الذي يشتغل عليه، ويقول:

«لم يبقَ سوى إنعاش بشرة الوجه قليلاً...».

وتابع شغله كمن لا يستطيع إنهاءه أو الاكتفاء بأي شيء منه وانتقل منهمكاً بحيوية من إجراء يدوي إلى آخر. أما آشنباخ الجالس مستريحاً غير قادر على الاعتراض، فقد بدا على الأرجح متفائلاً بما حصل ورأى حاجبيه في المرآة وقد تقوسا بانتظام وانسجام وعينيه وقد استطالت فتحتاهما ولمعتا بتأثير خطين خفيفين تحت جفنيهما. ورأى بشرته حمراء قانية بعد أن كانت سمراء بلون الجلد المدبوغ، وشفتيه اللتين كانتا شاحبتين فقيرتين بالدم قبل قليل، وقد انتفختا بلون التوت، وأخاديد وجنتيه وحول فمه وتحت عينيه، وقد اختفت تحت المراهم والعطر الشبابيين. نظر بقلب شديد الخفقان إلى صورة هذا الشاب المزهرة، وأعلن القائم بعملية التجميل أخيراً عن رضاه بطريقة أمثاله

الذين يتوجهون إلى من يخدمونه بالشكر المصحوب بتهذيب متذلل. وقال وهو يضع على رأس آشنباخ لمسته الأخيرة:

«إنها لمسات بسيطة يستطيع السيد أن يقع في الحب دون تردد...».

غادر آشنباخ بحلم السعادة تائهاً ومذعوراً. كانت ربطة عنقه حمراء وقبعته القشية الواسعة محاطة بشريط متعدد الألوان.

هبّت ريح فاترة تنذر بعاصفة وهطل مطر متقطع شحيح، لكن الهواء كان رطباً وسميكاً ومملوءاً بأبخرة العفونة. وطرقت سمعه أصوات خليط من التحليق في الجو والتصفيق والصفير. وظهرت للمصاب بحمى تأثير المواد التجميلية أشباح طائرة شريرة ترتع في الفضاء حوله وطيور البحر الجنائزية تنبش جثة المحكوم عليه وتنخر فيها ثم تدنسها بالروث، فالرطوبة تقطع شهوة الطعام، ويجتاح الجميع تصورهم أن المأكولات مسمومة بالجراثيم المعدية.

تغلغل آشنباخ أثناء اقتفائه أثر الجميل بعد ظهر أحد الأيام في متاهات المدينة الموبوءة. وخانه إحساسه بالمكان، لأن أزقة وأقنية وجسور وساحات هذه المتاهة كانت متشابهة جداً بحيث لا تستطيع السماء التمييز بينها. كان يسير متبصراً كيلا تضيع الصورة، التي يلاحقها متشوقاً، عن عينيه واضطر زيادةً في الحصافة غير المتعقلة أن يستند إلى الأسوار ويتخفى خلفَ المارّة. وهكذا لم يعد يدرك ما حل به من تعب وإرهاق، ألحقا بجسمه

وروحه معاً تيقظاً وتوتراً متواصلين. ومشى «تادسيو» خلف جماعته تاركاً للمربية والأخوات البنات في هذه الزحمة حق التقدم عليه. وصار يلتفت برأسه أحياناً ليلقي من فوق كتفه، بعينيه السنجابيتين بلون الشفق، نظرة إلى ملاحقةِ محبّه ويتأكد من استمرارها. كان يراه دون أن يخونه. تسلل تقوده العاطفة سكراناً لرؤيته منجذباً لعينيه يحدوه أمل غير لائق ووجد نفسه أخيراً مخدوعاً بهذا الأمل. لأن البولونيين دخلوا جسراً مغطى بقوس قصير كان ارتفاعه كافياً لحجب رؤيتهم عن ملاحقهم الذي ما أن وصل إلى الجسر حتى اكتشف اختفاءهم، وراح يبحث عنهم في ثلاثة اتجاهات على طول وإلى جانبي الرصيف الضيق القذر، ولكن دون جدوى. وأرغمه الوهن والإعياء أخيراً على التخلي عن متابعة البحث.

كان رأسه يحترق وجسده مغطى بعرق دَبق، وكان عنقه يرتعد ويحس بعطش شديد لا يُحتمل وبأنه في طريقه إلى نوع من التجبّن الآني. اشترى من دكان خضار صغير بعض ثمار التوت البري، وكانت فاكهة ناضجة قبل الأوان وطرية. سار وهو يأكل منها ووصل إلى ساحة صغيرة مقفرة، كأن عصا ساحرٍ استحضرتها، عرفها فوراً لأنه كان فيها لحظة اتخذ قرار تنفيذ خطة الهروب الفاشلة قبل أسابيع. جلس على إحدى درجات خزان الماء وسط الساحة منهاراً ومسنداً رأسه إلى السور الحجري. كان السكون قد خيّم ونما الحشيش الأخضر بين بلاطات الطريق وتناثرت الفضلات هنا وهناك.

بين الأبنية المهترئة بفعل تقلبات الطقس والمتفاوتة في ارتفاعاتها على محيط الساحة لفت نظره ما يشبه القصر بنوافذ مقوسة بحدّة لا يسكن وراءها غير الفراغ وتتقدمها شرفات صغيرة بتماثيل أسود حجرية، وفي الطابق الأرضي لبناء آخر كان هناك صيدلية، وحملت تيارات ريح ساخنة بين الفترة والأخرى رائحة الفينول.

جلس هناك، ذلك المعلم، ذلك الفنان المحترم، كاتب رواية «البائس» ذلك الذي رفض بصفاء نموذجي الأفكار البوهيمية والأعماق العكرة، وألغى تعاطفه مع القاع وأدان الأخطاء لأنها أخطاء. ذلك الرجل الصاعد للأعلى الذي انتصر على علمه وتحرر من التهكم والسخرية في ارتباط مع الثقة بالجماهير واعتياده عليها، ذلك الذي مُنح اسمه رسمياً صفة النبالة وطلب من تلامذته أن يحذوا حذوه ويقتدوا بشخصه، قعد هناك مغمضاً جفنيه بحيث لم يتسلل عبرهما، إلا نادراً، ثم تختفي بسرعة، نظرة هازئة مكبوتة جانبية تتجه إلى الأسفل. أما شفتاه المرتخيتان المضخّمتان بمادة التجميل فقد شكلتا بضع كلمات منفردة أنتجها دماغه شبه الغافي على أحضان منطقِ حلم غريب.

«إن الجمال يا «فايدروس» وعليك أن تنتبه لذلك، إن الجمال فقط هو الإلهي والظاهر للعيان في آن معاً. وهكذا فهو الطريق المؤدي للإحساس فيا «فايدروس الصغير»، ياطريق الفنان إلى الروح، هل تظن الآن يا عزيزي أن أحداً يمكنه الحصول على الحكمة ووقار الرجولة، إذا كان

طريقه إلى الروحاني يسير عبر المحسوس؟ أم أنك ربما تعتقد (وأترك لك حرية القرار) أنه طريق أثير وخطير، وفي الحقيقة طريق الشتات والخطيئة، الذي يقود بالضرورة إلى الضياع؟ إن عليك أن تعلم أننا نحن الشعراء لا نستطيع سلوك طريق الجمال إلا إذا انضم إلينا إله الحب والجمال «إيروس» وتسنّم دفة القيادة. حتى لو كنا أبطالاً بطريقتنا أو محاربين شرفاء، انقلبنا إلى أشباه نساء، لأن الانفعال الحسي غايتنا العليا ولأن شوقنا يجب أن يبقى الحب والتوق. تلك هي نشوتنا وخجلنا معاً. هل ترى أننا، نحن الشعراء لا نستطيع أن نكون حكماء أو محترمين؟ وأننا مضطرون للسير نحو الضلال والبقاء أسرى لمشاعر الفوضى والمغامرات؟ ليس أفضل ما يتخذه طرازنا من مواقف سوى أكذوبة وحماقة، وإن شهرتنا وتكريمنا مجرد نكتة، كما أن ثقة الجماهير بنا تدعو للسخرية البالغة، وتثقيف الشعب والشباب بوساطة الفن عملية وقحة يجب منعها. فكيف يصلح أن يكون مربياً شخص ولدت معه نزعة غريزية متجهة للحضيض وغير قابلة للتحسن؟ إننا نتمنى أن ننبذه ونتنكر له كي نحصل على الهيبة والوقار، لكنه يجذبنا إليه مهما حاولنا الابتعاد عنه. وهكذا فنحن نرفض الاعتراف بالأسباب، لأن الاعتراف يا عزيزي «فايدروس» لا يتصف بالهيبة. إنه علم وفهم وغفران بلا موقف وبلا شكل، إنه يتعاطف مع القاع بل إنه هو القاع. نحن إذن ندين ونشجب الاعتراف وهذه الإدانة تنطبق على الجمال. وكذلك على البساطة والعظمة والصرامة وعلى الرصانة والشكل،

لكن الشكل والرصانة يا عزيزي «فايدروس» تؤديان إلى النشوة وإلى الشهوة وتقودان النبيل ربما إلى تدنيس مفزع في الشعور تحكم عليه صرامته الجميلة النبيلة بالفجور، وتنتهيان به إلى الحضيض وهما معه. نحن الشعراء، كما أقول لك، نُساق أيضاً إلى هناك، لأننا لا نملك القدرة على الارتقاء بأنفسنا بل على الانحدار. والآن أذهبُ أنا يا «فايدروس» وتبقى أنت هنا، ولا تذهب إلا إذا لم تعد تراني...».

وبعد عدة أيام غادر غوستاف فون آشنباخ فندق الحمّامات في ساعةٍ صباحية متأخرة عن المعتاد، لأنه أحس بألم وصار يصارع نوبات دوار معينة نصف جسدية، يرافقها ذعر يتصاعد بشدة وشعور بأنه لا مخرج ولا رجاء. لا يدري ما إذا كان سببه خارجياً أو داخلياً يرتبط بوجوده ومصيره الذاتي. لاحظ في الصالة كميات كبيرة من المتاع المجهّز للنقل، وسأل حارس أحد الأبواب عن صاحبه فأجاب بأنه للعائلة البولونية، مرفقاً ذلك بلقب النبالة، وهو ما توقعه سرّاً. استقبل الخبر من غير أن تتغير ملامح وجهه الرخوة رافعاً رأسه قليلاً إلى الأعلى وكأن الأمر لا يهمه ثم سأل:

«متى؟»، وجاءه الجواب: «بعد الغداء»، فهز برأسه ومشى باتجاه البحر.

لم يتصف جو المكان هناك بكرم الضيافة، وامتدت من الأمام إلى الوراء تيارات الرذاذ البارد فوق سطح المياه

الفاصلة بين الشاطئ وبدايات مصاطب الرمال. جو خريفي يوحي بقرب الموت يسيطر على المكان شبه المهجور الذي كان مملوءاً من قبل بالحيوية والألوان، والذي لم تعد رماله أيضاً صافية كما كانت بالأمس القريب. كان ثمة آلة تصوير فوتوغرافي على حامل ثلاثي الساق منصوبة على حافة البحر ومغطاة بمنديل أسود راحت ترتجف مقرقعة من برودة الريح.

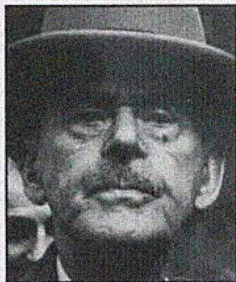
كان «تادسيو» مع ثلاثة أو أربعة من الأقران الباقين له يلهو إلى اليمين أمام كوخ أهله، وعلى كرسي استرخاء في الوسط تقريباً بين البحر وسلسلة الأكواخ الممتدة على الشاطئ وقد غطى ركبتيه ببطانية كان آشنباخ يتابعه بالنظر إليه. بدت اللعبة غير الخاضعة للرقابة، لأن النسوة كن مشغولات بحزم الحقائب استعداداً للسفر، ساكنة ثم تلاشت. كان الفتى القوي ذو البذلة المزنّرة والشعر الأسود الملمع بالزيت الذي ينادونه باسم «ياشو» قد تلقى على وجهه ضربة رمل أثارته واستفزته فتحدى «تادسيو» للصراع، الذي انتهى سريعاً بسقوط الجميل الأضعف على الأرض. ولكن بدا أن شعور الخادم في نفس الفتى الذي ينتمي إلى الطبقة الأدنى تحول في لحظةِ الفراق الحاسمة إلى خشونة كما لو أنه يريد الثأر لسنوات طويلة من العبودية، فلم يترك المنتصر المهزوم وشأنه بل انحنى فوق ظهره وغرز رأسه في الرمل، حتى أن «تادسيو» الذي انهارت قواه من جراء المعركة، كاد يختنق، وتحولت محاولاته دفع الثقل عنه إلى تشنجات توقفت لحظات ثم

تكررت على شكل ارتجاف ضعيف. أراد آشنباخ مذهولاً أن يهب للنجدة، بعد أن رأى المعتدي الشرس يترك ضحيته وشأنها، لكن «تادسيو» جلس شاحب الوجه متكئاً على إحدى ذراعيه، وظل دقائق عديدة أشعث الشعر داكن العينين بلا حراك. ثم انتصب واقفاً وراح يبتعد ببطء وتعالت صيحات تناديه بمرح أولاً ثم بقلق ورجاء. لم يكن يسمع، ولحق به الفتى الأسمر الذي ربما ندم على تجاوزه في التعامل معه وحاول مصالحته. لكنه عاد خائباً بحركة كتف من «تادسيو» الذي تابع سيره باتجاه مائل إلى البحر. كان حافي القدمين ويرتدي بذلته الكتانية المخططة ذات الغرزة الحمراء.

توقف عند حافة الموج منكساً رأسه يرسم بنهاية قدمه أشكالاً على الرمل المبتل، ثم تابع سيره إلى مقدمة البحر الضحلة التي لا تغمر في أعمق نقاطها أكثر من ركبتيه بالماء، فتجاوزها مقتحماً بتثاقل حتى وصل إلى المصطبة الرملية الداخلية، فوقف عليها لحظة مديراً وجهه إلى البعيد، ثم بدأ مباشرة وببطء سلوك اللسان الرملي الطويل والضيق الذي يكشفه البحر جهة اليسار تفصله عن البرّ مساحة من المياه وعن أقرانه شعور بالكبرياء الجريح. لقد تحول إلى ظاهرة نادرة وفريدة من نوعها، إلى نصب تذكاري هناك في البحر، يتطاير شعره مع الريح وخلفه اللانهاية الضبابية. ظل واقفاً وكأنه للفرجة فترة أخرى. وفجأة كما لو تذكر شيئاً أو دفعه دافع، التفت بجذعه مسنداً يده على خصره التفاتة بدت جميلة من موقعه الأصلي ونظر من

فوق كتفه إلى الشاطئ. كان المتفرج جالساً هناك، كما كان يجلس أول مرة التقت عيناه فيها بالنظرة نفسها الملونة بألوان الشفق. وكان رأسه المسنود إلى الكرسي يتابع ببطء حركة الجميل الذي يتقدم هناك وها هو ذا الآن ينتصب في مواجهة النظرة القادمة ثم يتهالك على صدره، بحيث أن عينيه تريا من الأسفل فيما سحنته ارتسم عليها تعبير استرخاء وانهيار داخلي وإغفاءة عميقة. كان يبدو له الفتى الشاحب والجدير بالحب هناك خارج الشاطئ يبتسم له، ويلوح بيده، وقد نزعها من على خصره، بإشارة إلى الخروج والتحليق في السماء إلى النهاية العظيمة الموعودة، وكما هي العادة في الغالب، وقف واستعد للحاق به.

مضت دقائق قبل أن يسرع أحد لإنقاذه بعد سقوطه جانبياً عن كرسيه. تم نقله إلى غرفته. واستقبل العالم في اليوم نفسه بإجلال ولوعة نبأ وفاته.



الموت في البندقية

«الموت في البندقية» قصة فنان يعيش أزمة روحية ومرحلة مضطربة في حياته فيذهب للبحث عن السلام والهدوء في المدينة السحرية «البندقية»، أجمل مدن العالم، المدينة المحكوم عليها بالموت في أحضان البحر الذي وُلدت منه أول مرة على يد الربة فينوس كما في الأسطورة.

كانت غايته أن يرتاح قليلاً من الشهرة التي تدفقت عليه بفضل أعماله، علّهُ يجد في الهدوء والسكينة مايتيح له إعادة التفكير في الفن والحياة وسطَ جمالٍ بيّن ومؤكد في الطبيعة والناس. هناك يجد ضالته بين الإنسان والمدينة وقد صارت لهما صورة القيمة المطلقة القادرة على إنقاذ الفن الكبير من هجمة المادة، لكنه بدلاً من أن يجد السلام في هذا الجمال، يقع فريسة للانبهار المميت بالجمال المُطلق للفتى «تادسيو» الذي يقضي إجازة وسط عناية أهله وخدمه. يهيمن عليه هذا الجمال، الذي يبدو وكأنه يُطّلُ من محاورة «أيون» لأفلاطون فيدفعه لمطاردته في شوارع المدينة التي تقع فريسةَ وباءِ الكوليرا فتحولها من رمزٍ للجمال إلى رمزٍ للموت.

إنها قصةٌ عن الجمال، عن الاضطراب الروحي المُرعب الذي يحدثه الجمال الفائق في النفس والروح. هي أيضاً قصة عن الوحدة، عن البحث العبثي عن الكمال، عن الحنين للشباب الضائع، عن الموت... الموت الساحر في «البندقية».

كتب توماس مان، الحاصل على جائزة نوبل للآداب في العام 1929، هذه الرواية القصيرة والمترعة بالرمزية المكثفة في العام 1912، لكنها أخذت موقعها بجدارة إلى جانب عمليه الأسطوريين «آل بودنبروك» و«الجبل السحري». وحوّلها مبدع الواقعية الجديدة في السينما الإيطالية لوتشيانو فيسكونتي إلى تحفة سينمائية بديعة إلى حدِّ الألم في العام 1971.


9789933508807